مكتبة ياسمين

أدب أيسلندي حديث

كريستين إريكسدوتر

ترجمة: عماد منصور

حكايات إلين

قبضة أو قلب

رواية

المحروسة

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

حكايات إلين

قبضة أو قلب

"لم يكن التَّغيُّر فورِيًا، ليس قبل الصفحة العشرين، ثم لاحَظت بغتةً شيئًا فيما يحيط بها، سكونًا حادًّا غير معتاد، أو أنها أضواء الشمال على الخليج الصغيرة. كانت تلك اليقظة جديدةً عليها، اخترقَت لا مُبالاتها، واستمرَّت هي في الكتابة، كتَبَت حتّى لم يَعُد هناك سوى فراغ صغير. بحجم قبضة أو قلب تقريبًا، وصارت تتنفّس بشكل مختلف. اختفى ذلك الصوت، المُختنق، الصافر. ارتخى حَلْقُها".

سريعًا ما نَكتَشِفُ ما هو المُشتَرَك بين المرأتين: طفولةٌ صَعبَةٌ، صَدمَةٌ نفسيَّة، وتكوينٌ انعزاليٌّ وجدَ مساحةً للتَّنفيس في التَّعبير الإبداعي. مع ذلك، كلَّما حاوَلَت "إلين" التَّواصُل مع المرأة الشَّابَّة من أجل استعادَةِ ذِكرياتٍ مُؤلِمَةٍ؛ كلَّما تَراخَت قَبضَتُها على الواقِع.

ISBN 978-977-313-914-8

9 789773 139148

مركز المحروسة للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

تصميم الغلاف: غسّان وشاهين

حكايات إلين

(قبضة أو قلب)

كريستين إريكسدوتر

ترجمة: عماد منصور

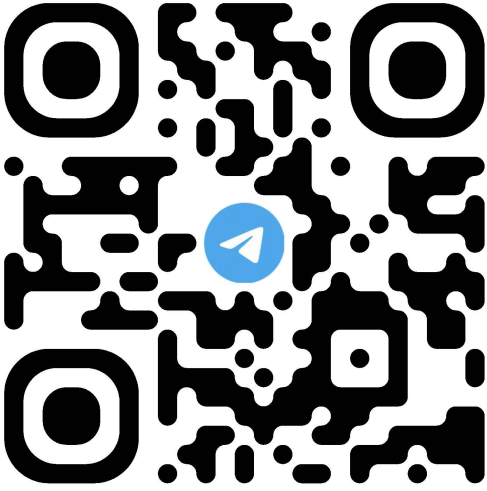

مكتبة ياسمين على تلجرام

الطبعة الأولى 2022

عنوان الكتاب: حكايات إلين (قبضة أو قلب)
A Fist or A Heart
المؤلفة: كريستين إريكسدوتر Kristín Eiríksdóttir
ترجمة: عماد منصور
مراجعة لغوية: محمود شرف
إخراج داخلي: رشا عبدالله

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٦٠٥٣ / ٢٠٢٢
الترقيم الدولي: 978-977-313-914-8

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2022

This book has been translated with a financial support from:
ICELANDIC LITERATURE CENTER

Copyright © Kristín Eiríksdóttir, 2017
Title of the original Icelandic edition: Elín, ýmislegt
Published by agreement with Forlagið, www.forlagid.is

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

إريكسدوتر، كريستين

حكايات إلين (قبضة أو قلب) رواية/ كريستين إريكسدوتر؛ ترجمة/ عماد منصور.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2022

237 ص؛ 14.5×21.5 سم

تدمك 978-977-313-914-8

1 - القصص الايسلندية

أ- منصور، عماد (مترجم)

ب- العنوان

839.693

رقم الإيداع 2022/16053

(1)

يداي ليستا أنظف من حوض استحمامٍ قديم. أظافري مقصوصة جميعها بأقصر ما يمكن، لكن الكيماويات قد زحفت مُتسرِّبةً عبر الجلد الميِّت، حتى العظم. كما لو أن مينا العظام غير موجود.

عندما أقول "عظم"، فأنا أعني الأظافر؛ لأن الأظافر شكل من أشكال العظم. أو بالأحرى، "قَرْن" هي الكلمة الأنسب، لكن على أيٍّ حال، كان الأمر كما لو أن بعض الكيماويات قد اختلطت بالبروتينات التي تُشكِّل نسيج الأظافر. عندما أقول "جلد ميِّت"، فأنا أعني فحسب الطبقة الخارجية من الجلد. كانت خلايا ميِّتة فحسب.

وأسفل منها، توجد الأَدَمة، وأسفل الأدمة توجد الأدمة التَّحتيَّة.

الحياة.

تبدو يداي قذرتين. لكن الحقيقة أنهما نظيفتان. تشقَّقَتا فحسب بفعل غسلهما في البرد. خشنتان بفعل الاستخدام. كبيرتان وممتلئتان

لأن هكذا هي الأيادي في عائلتي. السيقان في عائلتي قصيرة؛ لذلك لا نضطرُّ إلى الانحناء بشدَّة لتنظيف الأتربة. وأصابع أقدامنا ثخينة. باطن أقدامنا منبسط تحت وزن الأمزجة التي نحملها على تلك السيقان القصيرة وفي تلك الأيادي الكبيرة، الممدودة.

اسمي إلين يونسدوتر (Elín). ابنة «جوذرون» و«يون». سنة الميلاد، 1946. يوم الميلاد، التاسع من يناير. متوفَّيان، جوذرون ويون. هما هكذا منذ فترة. لستُ أمًّا لأحد.

أصنع الإكسسوارات، لكنني لست روائيَّةً. رغم أنه قد توجد بعض التشابهات بين الحِرفَتين، توجد -مع ذلك- اختلافات أكثر. حتَّى أكتب ما أكتبه الآن؛ أضطرُّ إلى الجلوس ساكنةً واستخدام يدَيَّ بطريقة تجعل ظهري يئنُّ من الألم.

لا أعرف كيف أكتب على لوحة المفاتيح دون النظر إليها، وأستخدم فقط إصبع السبابة في يدي اليسرى والإصبعين الوسطى والبنصر في يدي اليمنى. أحدِّق بالتناوب بين لوحة المفاتيح والشاشة، ثم يحدث أمرٌ ما. يهيم عقلي بعيدًا عمَّا أمامي، ويُخلِّف الألم وراءه، ويترنَّح على سقف المنزل.

السبب الذي قرَّرتُ من أجله أن أكتب هذا هو أنني إذا لم أفعل، فلن يفعل أحدٌ آخر- نتيجة مُتوقَّعة. الظُّلم في قصتي، رغم ذلك، مسألة غير ذات أهمية؛ الظُّلم موجود لأن الظُّلم في كل مكان. مُتأصِّل في حكاياتنا «نحن» لأنه متأصِّل فينا نحن.

عندما أقول «نحن»، أشعر كما لو أنني أكذب. ربما ينبغي عليَّ قولها كثيرًا. مرارًا وتكرارًا.

وحينها قد أبدأ في تصديق أنها حقيقية.

نحن.

سأقولها لإعفاء نفسي من المسؤولية فحسب- أتحدَّث عن نفسي، لكنني أحاول جرَّكم جميعًا إلى الطين معي. الظُّلم قابِعٌ هنا، داخلي؛ ولهذا أسهب في الحديث عنه- وليس عنكم.

أنتم.

طالما تمزَّق احترامي لكم "أنتم" مرَّاتٍ لا تُحصَى، تَفتَّتَ مرَّاتٍ كثيرة، واختفى وظهر ومجدَّدًا وتهشَّم إلى شظايا. كل تشخيص لمرض يحتوي على مائة تشخيص، وكلها خاطئة. كلها تشخيصات صحيحة. لا شيء تفعلونه خاطئ. كل شيء تفعلونه فظيع.

وهناك سبب وجيه لماذا لا ينبغي لأحد كتابة هذه القصة: لأنه لا توجد قصَّة. مجرد محاولة للربط بين العلامات التي تظهر لنا في حياة اليقظة والأحلام. لا تقلقوا -لن أُهدهدكم لتناموا وتغرقوا في الأحلام- لكن العلامات تجعل من الواضح لي أن الدماغ ليس شيئًا يمكنكم لمسه.

الأمر نفسه ينطبق على كل الأشياء، وهذا ما تدور حوله هذه القصة.

لكن ليس عن فتاة.

فتاة اسمها إلن (Ellen).

(2)

قابلتُها في اليوم الذي تلا العثور على الصناديق. يتوافق هذا تمامًا مع هذه القصة بأكملها؛ ذلك أن كل شيء يتدفَّق معًا في عقلي. تنساب إلن عاليًا خارجةً من الصناديق وإلى الأسفل داخلةً إليها- صناديق كرتونية ضائعة، موجودة، مسروقة.

مؤخرًا، كان الذُّباب الأبيض قد ظهرَ، مجدَّدًا. جرَّبتُ كل شيء: الخل، سائل غسل الصحون... كل تلك الأشياء. فصلتُ بين النَّبْتات، رششتها، جفَّفتها. دائمًا ما يعود الذباب، حتَّى استسلمتُ في النهاية وتخلَّصتُ من النَّبْتات.

أحزنني ذلك. جميعها كانت من أناسٍ يهمُّني أمرهم، معظمهم كانوا أمواتًا. لا أقول، انتبهوا، إنني كنتُ مُحطَّمة، أو أنني بكيتُ. لكن الأمر كان مُرهقًا رغم أيِّ شيء.

بعد أسبوع، حدث أمرٌ ما سأربطه أيضًا بإلن ألفسدوتر والصناديق الثلاثة:

كنتُ أعبث بالأسلاك وراء التلفاز -جهاز تلفاز قديم متصل بهوائي، على الطريقة القديمة- عندما انغلَقَت يدي على شيءٍ حيٍّ. بمعنى ما، فإن الأسلاك، بالطبع، أشياء حيَّة. أو على الأقل فإن الكهرباء التي تمرُّ عبرها ليست ميِّتة، لكن الشيء الذي لامسته كان مختلفًا. كان عضويًّا. انحنيتُ في ركنٍ مُظلم وتحسَّست علاماته الحيوية وسحبته.

كانت نبتةً. ليست واحدة من النَّبْتات التي تخلَّصتُ منها. لم تكن تشبه أيَّ نبتة رأيتها من قبل، بمعنى أنه لم يكن لديها جذور، أو عنق. تشابُك مُتقَن قائم بذاته يتنفَّس. وكأن أحد برامج ديڤيد أتينبورو قد تبرَّز وراء التلفاز.

Tillandsia، يقول الإنترنت. نبتة من أمريكا الجنوبية والوسطى. نبتة بلا جذور تعيش على الهواء فحسب. أوراق خضراء برَّاقة، طويلة ورقيقة، تنمو بشكل مُتناسق عجيب، كما لو أن كل ورقة كانت تحاول تطويق الورقة التي بعدها. كشكلٍ من الجنس الجماعي، وعندما أمعنتُ نظري، باحثةً عن شيءٍ قد يكون البداية والوسط، لم أجد شيئًا.

بعض أنواعها تُنبتُ أزهارًا، قرأتُ، وبالفعل رأيت علامات بهذا على نَبْتتي. بُرعم وردي مُنمنم في أحد المواضع.

قد يتخيَّل القُرَّاء العقلانيون أن صديقًا لي حتمًا أرادَ أن يتسلَّى قليلًا ويفاجئني بهذه الهدية العجيبة، وهو ما يمنحني الفرصة لإضافة شيء مُهمٍّ، وهو:

ليس لدي أيُّ أصدقاء. ولا صديق واحد حتَّى.

لا يوجد أحد مجنون. أعني ما أقوله. توجد جوانب كثيرة للحقيقة لحدٍّ أنها، في أفضل السيناريوهات، تكون ذات شكل تكعيبي. وفي أسوأ السيناريوهات، بالطبع، لا تحتوي على جانب واحد مستوٍ.

(3)

بعد ذلك بأسبوع، اتَّصلَت بي الوكيلة العقارية وأخبرتني أنهم وجدوا غرفة تخزين صغيرة باردة في منزل جدتي القديم لم تكن في أيٍّ من مُخطَّطات المنزل، وأنه فيها، توجد ثلاثة صناديق تحمل اسمي.

كان الأمر عجيبًا. أبدًا لم أفكِّر فيما آلت إليه مُتعلَّقاتي من طفولتي وسِنِي مُراهقتي. كان الأمر كما لو أنني افترضت أنها اختفت بدافع من إرادتها الذاتية. كنتُ تخلَّصتُ من بعض الأشياء، وأشياء أخرى ضاعت. البقية ربما اختلطت بأشياء شخص آخر، أو رحلت عن البيت، مثلًا.

لكن هناك كانت هذه الصناديق الثلاثة، تقول الوكيلة العقارية. صناديق لا بُدَّ أن أحدهم قد رتَّبها بشكل معين.

إلين، أوراق

إلين، كُتب

إلين، مُتفرِّقات

كل الأشياء الدنيوية التي خلَّفتُها ورائي في غرفة نومي طوال تلك السنين الفائتة.

بالإضافة إلى هذه الصناديق الثلاثة، كانت هناك بضعة صناديق من الكتب في حجرة التخزين، وكومة من أغطية المناضد والأردية المُطرَّزة، وجهاز راديو تالف، وأتربة، ورَوَث فئران، وشِباك عنكبوت.

طالما حاولت أن أتجنَّب كل شيء يتصل بتلك الشقة -لم أفعل سوى أن وظَّفتُ مديرَ ممتلكات ودفعتُ الفواتير- والآن هي خاوية، بيضاء بلا شائبة بأرضيات متوهِّجة، وصورٌ لها قد انسابت في صفحات إعلانات العقارات في الجرائد. كل شيء كان جاهزًا عندما خرجت غرفة التخزين هذه في القبو إلى النور.

ليس لديَّ مكنسة حتَّى. اعتذرتُ بعد أن كدَّسنا الصناديق في المقعد الخلفي في سيارتي. تجاهَلَت وكيلة العقارات اعتذاري، وقالت إنها ستهتمُّ بالأمر. كانت متوتِّرة. كما لو أنها تبيع أول عقارٍ لها أو أنها لم تكن وكيلة عقارية على الإطلاق. شابَّة تتحدث بسرعة، كما لو كانت تتقمَّص شخصية رجل.

شكرًا، قلت لها، وتركتُها مع شباك العناكب وروث الفئران. طلبتُ منها أن تأخذ الأردية المُطرَّزة إلى المركز الخيري المحلي، وأدركتُ حقًّا أنني كنت أُقلِّل من شأنها، لكن لا بأس في ذلك، أليس كذلك؟

ربما استمتعتُ بذلك قليلًا حتَّى.

كلنا لدينا مُراوغاتنا الخاصة.

في طريقي إلى البيت، استمعتُ إلى الأخبار على الراديو. كانت الشرطة تبحث عن معلومات عن مكان اختباء رجل شاحب الوجه، يرتدي معطف فرو بقلنسوة وقفَّازين. كنَّا في بداية فبراير والنهار مُعتم. تساءلتُ: مَن قد يكون شاحبًا ولا يرتدي قفَّازين الآن.

عندما عدتُ إلى المنزل، كان نَصٌّ إلن في انتظاري، غير مقروء. هذا النَّصُّ كان من أجل مسرحية ستُعرض في الخريف. كانت الشائعات تقول إنها أنجزت بالكامل، وأن تجهيزاتها مكتملة، وأنه إذا حاول المخرج تغيير فاصلة واحدة، ستنهار المسرحية بأكملها. على أيِّ حال، كانت شخصياتها حيوية بشكل غير مسبوق، وأسلوبها استثنائيًا.

قلَّبتُ الصفحات حتى وصلت إلى أوصاف الشخصيات وأمعنت النظر في الصفحة:

الأب:

لطخة من الضمادات، بعضها مبتلٌّ. رغم ذلك لا مشكلة في شيء.

انقضى زمنٌ طويل منذ اقتربت من أيِّ مسرح. في شبابي، كنت أعمل أحيانًا في قسم الإكسسوارات لفترات زمنية قصيرة، لكن طوال الأعوام الثلاثين الفائتة. لم أعمل حقًّا سوى في السينما والتلفزيون.

هريذر، المخرج الذي سينفِّذ مسرحية الشابَّة العبقرية، لم يصنع سوى أفلام تقريبًا، حتَّى وإن كان مثلي، إلَّا أن بدايته الحقيقية كانت في المسرح. عملتُ معه كثيرًا. الآن هو في منتصف عمره وطالما عُرفَ باسم "الشيء الكبير القادم" طوال العشرين عامًا الفائتة. وهو ما يعني أن المسرح هو صاحب فكرة إشراكه في هذه المسرحية، وأنه كان بائسًا ربما. كان يريد إصابة نجاحٍ: سمكة قرش في الفورمالدهايد... شيء ما يحرِّره من توقُّعات الناس، ويضمن له بعض الأمان.

أوه، الأمان!

عندما اتَّصلَ بي وسألني إن كان لديَّ وقت، كان ردُّ فِعلي الأول هو قول "لا". في الأساس لأنني أصبحتُ مُستهلكةً جدًّا بفعل اللقطات

القريبة، والتفاصيل، والسعي نحو الكمال. بالمواد التي تشبه الجلد. بالفروق الواهية. بهذا النوع من الدِّقَّة المفرطة. كانت هذه الدرجة من التركيز التي يتطلَّبها هذا الإتقان مُسبِّبةً للإدمان. في المسرح، بمقدور أي شخص عدم الاهتمام بذلك كثيرًا. الحركات يجب أن تكون كبيرة بما يكفي فحسب حتى يراها الأناس في الخلفية البعيدة، وكذلك الأزياء. بينما الإكسسوارات عبارة عن قطع بلاستيك صلبة وألواح خشب حُبيبية مطلية على شكل رديء، إذا كنت أتذكَّر بشكل صحيح.

اقرئي النَّصَّ فحسب، قال لي هريذر. ستحبِّين أوصاف الشخصية. إنه ملائم جدًّا لحداثيَّةٍ مثلك- سنضعك في الفريق. ستحبِّين الأمر.

أعِدُكِ، قال لي، وكنتُ على وشك قول وداعًا عندما ذكر اسم الشابَّة العبقرية.

إلن ألفسدوتر، قال لي.

ابنة ألفور فينسون؟ سألته.

نعم، هذه صحيح، قال لي. من الأفضل مبيعًا. لدينا المسرح الكبير، وكثير من المال؛ لهذا أتَّصِل بكِ.

هل القراءة الأولى الاثنين القادم؟

هل ترغبين في الانضمام إلينا؟ سألني، مُستبعِدًا ما يزال أن أقول "نعم". القراءة الأولى يوم الاثنين، أسرع في القول. بالطبع ليس عليكِ حضور البروفة ما لم ترغبي... لكن مُرحَّبٌ بكِ طبعًا.

أرسِلْ إليَّ المسرحية، قلتُ له، وفي نفس اللحظة تقريبًا، استلمتُ بريدًا إلكترونيًّا جديدًا. طبعتُ النص على الفور، لكنه من بعدها بدأ يهيم، غير مقروء، بين مائدة المطبخ وأريكة غرفة العيشة.

استولى عليَّ ذلك الإرهاق الذي يُصاحِبُ دومًا نهارات الشتاء القصيرة. نهضتُ وخطوتُ إلى غرفة المعيشة. كان كل شيء في فوضى. مساحة عملي تلتهم كلَّ متر مربع في المنزل، وأرطال من الطمي تقبع تحت غطاء بلاستيكي سميك على مائدة الطعام. ومنبثقًا من قلب الطمي ومخترقًا فتحةً مشقوقة في البلاستيك، كان القَرْن الذي أعمل على تشكيله. من المفترض أن يبدو كقَرْن حيوان كَركَدنٍّ يلعب دورًا كبيرًا في فيلم سيتمُّ تصويره في الصيف، لكن المخرج لم يرغب في استخدام قَرْن حقيقي؛ لأسباب سياسية.

كان العالم جائعًا للعبقريات الشابَّة. طالما راقبتُ بعضها يصادف النجاح ثم يختفي تمامًا، أو يسقط إلى جوار ناظِمي الشِّعر المُملِّين. كقاعدة، لم يكن الأمر أن عبقريتهم هي ما يأسر الناس، لكن بالأحرى شبابهم ونضارتهم. جِلْدهم وليس موهبتهم. كان الأمل في شيءٍ جديد ينساب كعباءة خفيَّة على المعتقدات القديمة المستهلكة التي لا ينقطع الناس عن تلاوتها مرةً بعد أخرى، بعد أخرى، بعد أخرى.

طالما كان أبو إلن، ألفور فينسون، (الشيء الكبير القادم) في زمانه، ولاحقًا، كاتبًا متميِّزًا. مَاتَ منذ سنواتٍ كثيرة. كان كاتبًا مسرحيًّا، من بين أشياء أخرى، وعملتُ في الحقيقة على بعض إنتاجاته. تمكَّنتُ من معرفته قليلًا.

في السابق في عام 1980 تقريبًا، شيَّدتُ جبلًا مكسوًّا بالخضرة يتمُّ تفجيره خلال كل عرض فور أن يُرفع الستار، ليلةً بعد أخرى. حياته بأكملها كانت تراچيديةً ودراميَّةً ككتاباته. ونهاية حياته لم تكن استثناءً، وحينها كانت إلن في عمر السنتين فحسب ربما.

كان ذلك أيضًا سببًا في اهتمامي بمسرحيتها بلا شك. كُتِبَ عن ألفور فينسون وأعماله، لكن القليل جدًّا عُرف حقًّا عن سنواته الأخيرة. عن المرأة الشابَّة التي أنجب منها ابنةً، إلن.

كان يكبرني بخمسة أعوام تقريبًا، وأتذكَّر جيدًا اللغط الذي أحدَثَه كتابُه الأوَّل. لاحقًا، عندما بدأت في العمل قليلًا في المسرح والتقينا، فُتِنتُ به بعض الشيء. لكن ليس إلى حدٍّ أن أرغب في معرفته رغم ذلك، وأبدًا لم يُثر إعجابي. لكن لا يحدث كثيرًا أن يلتقي المرء بأناسٍ يَسهُل عليهم التلاعب بمن حولهم ومَلؤهم بقصص ماجنة.

اقتفيتُ أثر الإشاعات بشأنه، أنصتُّ من بعيد. كان الأمر كأي مسلسلٍ هزليٍّ آخر، بالطبع، وكيف كان لأيٍّ من ذلك علاقةٍ بي؟

حتَّى تورَّطتُ بالصُّدفة في أكثر هذه القصص مجونًا.

عثرتُ على نظَّارة القراءة بجوار جهاز التَّحكُّم في التلفاز ثم خطوتُ عائدةً إلى المطبخ وجلستُ للقراءة مجدَّدًا، لكنني لم أستطع التركيز. عندما بحثتُ عن الكَركَدنِّ على الإنترنت قبل بضعة أيام، ظهرت لقطات قريبة لا تُحصى للجروح ومنذ ذلك الحين، لم أستطع التوقُّف عن التفكير في هذا الفعل: تمزيق قرنٍ من وجه حيوان كَركَدنٍّ.

لاحقًا، بيعت القرون في السوق السوداء.

لا، عليَّ أن أنجز القَرْن أولًا لأتمكَّن من قراءة تحفة الفتاة الإبداعية. ارتديتُ قميص العمل وقمت بتشغيل الراديو، وجلستُ على المائدة، وشرعتُ في حفر خطوط رفيعة جدًّا في الطمي بفرشة سلك خَشِنة.

(4)

ماتت جدَّتي قبل أربعين عامًا تقريبًا. تخلَّصتُ من كل شيء دون تذكُّر أنني فعلتُ ذلك. أحيانًا، أشكُّ أن الأمر حقيقي، لكن لا بُدَّ أنه كذلك. وإلَّا، مَن غيري فعل ذلك؟

لا، لا بُدَّ أنه أنا، مصدومةً، غارقةً في الشعور الذنب، مَن ملأ أكياس القمامة بحياة جدَّتي وأسرع بها مرَّةً بعد أخرى إلى مقلب النفايات.

توهَّمتُ أن يديَّ تخصَّان شخصًا آخر. كل شيءٍ كان ينبغي أن يذهب إلى مقلب النفايات. كل شيءٍ يُذكِّرني بالمرض واليأس. حتَّى تلك الأشياء المُشبَّعة بذكريات الأوقات السعيدة أصبحت باعثة عن الكآبة في هذا السياق- باعثة على الكآبة لحدٍّ أنها ينبغي أن تذهب إلى مقلب النفايات.

عندما نظرتُ إلى يدَيَّ أمامي، شعرتُ وكأنهما تخصَّان شخصًا آخر كان ينشر أطراف متقيِّحة من جذعٍ يتمتع بالصِّحَّة. إذا كان هناك أيُّ شكل من الأمل لي، ينبغي أن يذهب حتمًا إلى مقلب النفايات.

أتذكَّر على نحوٍ ضبابيٍّ تنظيف الشَّقَّة ذات مرة. كنتُ حينها في السابعة والعشرين من عمري، امرأة مختلفة تمامًا، تزحف في أرجاء الشَّقَّة وتفرك الأرضية مُقعيةً على أربع، والشيء التالي الذي أتذكَّره هو الأسرة التي استأجرت الشَّقَّة. المستأجرون الأوائل. كانوا لطيفين وعاشوا في شقَّة الجدَّة لسنوات كثيرة.

عندما تركوا الشَّقَّة وتولَّيتُ مسؤولية المستأجرين التاليين، كان كل شيء مختلفًا. اختلط حزن عجيب، جديد، بالحزن القديم.

دائمًا ما كانت هناك هالة من المأساة في تلك الشقة، تزداد قتامةً مع كل دفعة جديدة من المستأجرين.

التحقتُ بالعمل في قسم الإكسسوارات في مسرح، كانت جدَّتي قد رتَّبت لي وظيفةً فيه قبل ذلك بسنوات كثيرة، ولم أعرف حينها كيف لي أن أتغلَّب على الصدمة.

نصحتني زميلة عمل عجوز لجدَّتي أن ألتحق بمدرسة الفنِّ. ذكَرَت برنامج النَّحت في الأكاديمية الملكية الدنماركية. ثم ساعدتني في تقديم طلب الالتحاق. لم أكن أحمل حتَّى شهادة الثانوية، لكنني نجحتُ في الالتحاق بشكلٍ أو بآخر.

على مدار السنوات القليلة التالية، عشتُ ودرستُ في كوبنهاجن. أبدًا لم يَخطُر لي أنني كنتُ فنانة، لكنني تعلَّمتُ الكثير الذي سأستفيد منه لاحقًا بعملي. تعلَّمتُ الألوان، والأشكال والتكوينات والمواد.

حسنًا، ربما خَطرَ لي ذلك. لكن سأقوله همسًا. خَطرَ لي بينما أعمل على مشروعي النهائي، أقولبُ تمثالًا لهرقل وأخربشه بطرف إبرة حتَّى لم يَبقَ منه شيءٌ سوى ركام من الطباشير.

عندما عُدتُ إلى الوطن في عام 1980، اشتريت منزلي. سقيفة أغنام عمرها مائة عام كانت تحوَّلَت منذ زمن بعيد إلى مسكن؛ هُجرَ، ثم استُعيدَ، ثم هُجرَ، ثم استُعيدَ مُجدَّدًا. مبنى ملحق في وسط مدينة ريكياڤيك نسوا أن يهدموه.

أخذتُ قرضًا برهن شقَّة جدتي لشراء المنزل. كان المالك رجلًا عجوزًا يؤجِّر المنزل لآخرين. أخبرني المستأجرون، الذين كانوا في نفس عمري تقريبًا، أن المبنى تكتنفه مُتلازمة سقم المباني، والأشباح، بالإضافة إلى العفن والطحالب في المرحاض. كانت الأمُّ حاملًا وكانوا سُعَداء لترك المنزل. لم يكن هذا ما يريدونه لرضيعهم.

كان هناك مساحة تغصُّ بالنمل في الأساس الحجري، الرَّطِبْ والمُتعفِّن. تحته كان أنبوب صرف أكله الصدأ منذ زمن طويل، وهكذا كان المنزل ينتصب في قلب الخراء.

انتقلتُ إلى فندق رخيص في المنطقة وأخذتُ وقتي في تجديد أساسات المنزل: الإبادة، الرفع، إعادة البناء، تركيب أنابيب صرف جديدة، معرفة كل شيء عن الرطوبة والتهوية. تهيئة الظروف، تغيير المواد. ثم إعادة البناء. أخذتُ قرضًا ثانيًا.

كان ألواح الخشب مُتعفِّنةً في بعض المواضع، لكنني أردتُ الإبقاء على الخشب الأصلي، صنوبر ناعم كان يحتضن تاريخ المنزل بأكمله ويبقيه بعيدًا عن الأنظار بهدوء. بعد أن اجتثثتُ سبب الرطوبة،

انتزعتُ كل لوح، وفحصتُ حالته، ثم جفَّفتُه ودفَّأته قبل تثبيته مُجدَّدًا في مكانه أو تغييره بآخر جديد.

قمتُ أيضًا بتعميق القبو، بما أنني هبطتُ إليه بجاروف على أيِّ حال. وهناك احتفظتُ بأدواتي وموادِّي، وفي أثناء مشاريعي الأكثر سُمِّيَّةً، الأكثر قذارةً، كنتُ أقيم في القبو أيضًا. يحتوي على أربعة نوافذ يمكن كسرها للسماح بقطط الحيِّ بالتسلل إلى الداخل، لكنني ركَّبتُ أيضًا نظام تهوية قويًّا، ومروحة.

كانت غرفة المعيشة والمطبخ في الطابق الأرضي. كلٌّ منهما له مساحته الخاصة. يَصعُب عليَّ فهم هذا الهوس لدى الناس تجاه التقسيمات المفتوحة. وجود مطبخ في غرفة المعيشة يشبه تمامًا وجود مرحاض فيها على السواء. وراء بابٍ مُنزلقٍ فرنسيٍّ الطراز في نهاية غرفة المعيشة توجد مساحة العمل، وبجوارها، غرفة نوم صغيرة.

أنام على أريكة طويلة صلبة لأن ذلك أفضل لظهري ولأنه عندما أنام، دائمًا ما أستلقي ساكنةً تمامًا، ودائمًا ما أستيقظ في نفس الوضع الذي استغرقتُ في النوم فيه. كثعلب في جُحْره.

لكنني مُمتنَّة لمنزلي.

كل مسمار حيث وضعته تمامًا.

إذا انتفخت ألواح التخشيب، فأنا المُلامة.

أعرف بالضبط أين توجد أنابيب المياه.

توجد عِلِّيَّة في المنزل. في حوالي عام 2000، قمت برفع السقف ووضعت شبَّاكًا بديعًا، مصنوع من الخشب المُعطَّر المقطوع حديثًا. وفي نفس الوقت، قمت بتركيب شقَّة استوديو في العِلِّيَّة أقوم بتأجيرها سرًّا.

المـرأة التـي تسـتأجر منِّـي هـي أمٌّ عزبـاء. اسـمها هيلـين، ويصحبهـا طفلهـا كل أسـبوعين. أسـمع حينهـا وَقْـعَ خطـوات سريعـة وانفجـارات دمـوع غريبـة. لكنهـا طـوال بعـض الأسـابيع، لا تكـون في المنـزل. ربمـا لديهـا عشـيق تقيـم لديـه أحيانًـا.

(5)

عندما قدتُ سيارتي إلى المسرح لحضور القراءة الأولى، كان النَّصُّ يجلس غيرَ مقروء على مقعد الراكب. في الليلة الفائتة، تشتَّتَ انتباهي في محاولة تحديدي للتكوين الصحيح في الطمي، وقبل أن أدرك الأمر، تأخَّرَ الليل كثيرًا حتى حان وقت النوم.

كان طاقم المسرحية قد احتشد في غرفة الاجتماعات مع المخرج، ومُصمِّمة المَشاهِد، وكاتبة المسرحية. كان الطريقة التي يُنجز بها الأمر عادةً هي أن يقرؤوا المسرحية ببطء وتركيز، وتحديد أهمية هذا المشهد أو ذاك.

شعرتُ أن هذا من أغبى الأشياء التي يمكنني فعلها. كان هناك دائمًا شخص أو اثنان في المجموعة يتشبَّث بكلمةٍ ويبقيها رهينةً. يطنطن ويهمس بشأن أشخاص مجهولين تنطلق أسماؤهم حينها

عشـوائيًّا. وقبـل أن تُـدرك الأمـر، تبتعـد المناقشـة عـن مسـارها وتنطلـق قُدمًـا. كل شيء يعتمـد عـلى مـدى إجـادة المخـرج لمهامـه، باختصـار.

ورغـم أننـي كنـتُ متأخِّـرة قليـلًا، جلبـتُ لنفـسي كوبًـا مـن القهـوة قبـل أن أخطـو عـلى مهـل إلى غرفـة الاجتماعـات. كانـوا جميعًـا هنـاك. الممثلـون -بوجوههـم المنطلقـة، المُتحمِّسـة-، مصمِّمـة المشـاهد -أنيقـة الملبـس-، المخـرج -بـكل هفواتـه وانفعالاتـه التـي لا يوقفهـا شيء-، وفي نهايـة المنضـدة: كاتبـة المسرحيـة.

بَـدَت إلـن وكأنهـا لم تبلـغ العشريـن بعـدُ. كان تجلـس برأسـها مُنحنٍ، شـعرها اللامـع، الُمزيَّـت، يخفـي نصـف وجههـا، وجلدهـا الـذي بلـون الحليـب قـد جـذب انتباهـي عـلى الفـور. أردتُ أن أجلـس قريبًـا منهـا قَـدْر مـا أسـتطيع حتـى أراهـا بشـكل أفضـل وجذبـت مقعـدًا قابِـلًا للطَّـيِّ حشرتـه كيفـما اتَّفـق بينهـا وبـين الممثلـين. قدَّمنـي المخـرج إلى المجموعـة.

سـتكون إلـين مسـؤولة عـن الأب، وكومـة الضـمادات، قـال بفظاظـة وابتسـم بتكلُّـف.

و"آلـة الثلـج المائـع" في الفصـل الثـاني، قالـت مُصمِّمـة المشـاهد، صانعةً علامـة اقتبـاس بأصابعهـا، ومبتسـمة بتـودُّد إلى كاتبـة المسرحية.

عندمـا اقتربـتُ منهـا أكـثر، أدركـتُ أن جلدهـا لم يكـن حقًّـا بلـون الحليـب. بـل بأخـفِّ درجـات الأخـضر الليمـوني -أقتـم مـن الأبيـض بدرجة لونيـة واحـدة- ولهـذا كانـت تبـدو نـيِّرةً. الـشيء الأكـثر غرابـةً، رغـم ذلـك، بشـأن جلدهـا كان ثخانتـه وطراوتـه. كانـت مَسـامُّها صغـيرةً جـدًّا عـلى أن تُـرى.

كان جلدهـا ثخينًـا جـدًّا لحـد أنـه لا يمكنـك رؤيـة عروقهـا في أيِّ موضع؛ كان جلدهـا بنفـس الأخـضر الليمـوني- الأيـض الشـاحب في كل إنـشٍ فيـه. كدُميـة رخيصـة. لـو كان عـليَّ صـبُّ تمثـال مـن الشـمع لإلـن ألفسـدوتر؛ لبـدت مُصطنعـةً مقارنـةً بـه.

على عكس بقية شَعرها البادي للعيان، كانت رموش إلن بيضاء، وهو ما أسكتَ منظرها بأكمله. كم كان ذلك عجيبًا، قلتُ لنفسي. حملقتُ في فروة رأسها لمعرفة هل كان شعرها ملوَّنًا ورأيتُ على الفور الظِّلَّ الحديث لصبغة الشَّعر. مرَّتا استحمام ستزيلانها بالكامل، لكن بضعة إنشات من الجذور الفاتحة كانت بادية للناظر بالفعل.

كانت ترتدي تيشيرت أبيض يبدو مُتَّسِخًا، رغم أنه حتمًا قد غُسلَ لتوِّه كثيرًا لحدِّ أنه بدأ في التقشُّر. مع التيشيرت، ترتدي بنطالًا رياضيًّا لامعًا بأبازيم على الجانبين، وجوارب رياضية بيضاء بأشرطة زرقاء وحمراء، وحذاء جلديًّا أسود.

بَدَت مُتشرِّدة...

طالما لاحظتُ هذه الموضة وأربكتني. كل هؤلاء الشباب، الأناس الذي يتمتَّعون بالجاذبية، ويمشون مُترهِّلين في الأسمال التي بيعت ذات يوم في متجر تعاوُنيٍّ ما في التسعينات ثم ارتداها مُزارِع بطٍّ لسنوات، ثم بيعت مُجدَّدًا في متجر خيري للصليب الأحمر، ثم أُدخِلَت الآن إلى السياق العام مُجدَّدًا على يد الشباب والجميلات. لو ارتديتُ كما ترتدي إلن ألفسدوتر؛ سيظنُّ الناس أنني امرأة بلا مأوى فور رؤيتي.

ألقيتُ نظرة خاطفةً فيما حولي بحثًا عن معطف أو كِنزة، لكنني لم أر شيئًا ينتمي إليها سوى كِنزة منبعجة، رثَّة من الأكريليك، في زاوية الغرفة. من ألقى هذه الكنزة على الأرض أثناء الاجتماع الأول في محلِّ عمل جديد؟ فكَّرتُ، شاعرةً بقلق غير متوقَّع من أجل الكاتبة المسرحية الشابَّة.

تخيَّلتُ أمَّها، منهكةً، تُرتِّب الأشياء بينما تمضي، شاكيةً دائمًا وممتلئةً برثاء الذات، وتُهمل في نفس الوقت تعليم طفلتها الحدَّ الأدنى من السلوك المقبول.

أتساءل كيف تمضي أحوال أمِّها؟

إذن، آلـة الثلـج المائـع سـتقوم في الحقيقـة مقـام الفـم؟ نهَقَـت مُصمِّمـة المشـاهد. كانـت تتوجَّـه بالسـؤال إلى إلـن، التـي لم تكـن نطقـت بكلمـة حتَّـى تلـك اللحظـة. تطلَّعـتُ إليهـا مترقِّبـةً، منتظـرةً أن يتغـيَّر لـون جلدهـا، أن يحمـرَّ خدَّاهـا أو يَبْيَضَّـان، لكـن شيءٌ لم يتغـيَّر. اسـتدارت بعينيهـا الرماديتـين كالحجَـر إلى مصمِّمـة المشـاهد وأجابـت.

فـمٌ أو مَنـيٌّ مشـقوق أو فتحـة شرج، لا يهـمُّ، قالـت، وضحـك الجميـع. ربمـا كانـت أكـثر ثقـةً في نفسـها مـمَّا تبـدو عليـه، قلـت لنفسـي، لكـن عـلى وجههـا ظهـرَ تعبيرٌ مرتبـكٌ. كانـت مُتفاجئـةً.

عندمـا عـدتُ إلى البيـت، رأيـتُ الصناديـق عـلى أرضيـة غرفـة المعيشـة وقـررتُ أخذهـا إلى مركـز إعـادة التدويـر. لسـتُ في حاجـة إلى كبسـولات زمنيـة غامضـة في حيـاتي، فكَّـرتُ، وشـعرت بارتيـاح.

حملـتُ الصناديـق إلى السـيارة في الخـارج، وقُـدتُ إلى نقطة التسـليم في النهـار المُعتـم، اسـتمعتُ إلى الأخبـار في الراديـو. كانـوا مـا يزالـون يبحثـون عـن الرجـل الشـاحب الـذي يرتـدي معطـف فَـروٍ بقلنسـوة وقفَّازيـن. قُـدتُ صعـودًا عـلى الرصيـف المائـل، بحاويـات الشـحن عـلى الجانبـين، لكننـي عندمـا وصلـت إلى الحاويـة المخصَّصـة للمُخلَّفـات غـير القابلـة للتدويـر، تذكَّـرتُ شـيئًا مـا.

دفـتر ذهبـي بملائكـة عـلى واجهتـه. كانـت مُسـتغرقة في التفكـير، بأياديهـا تحـت ذقونهـا. منحتنـي جـدتي ذلـك الدفـتر.

لم أوقف السيارة، بل تابعتُ القيادة وتجاوَزتُ كل حاويات الشحن، عائدةً إلى وسط المدينة. توقَّفتُ عند مطعم تايلندي، طلبتُ شِعريَّةً تايلاندية، وأخذتها إلى البيت لتناولها بينما أشاهد الأخبار.

عادت الصناديق إلى أرضية غرفة المعيشة.

إلين، مُتفرِّقات

في تلك الليلة، أنهيتُ قولبة قرن الكَركَدنِّ وبدأت التحضير لمشروعي القادم مع نفس المخرج. أطراف محترقة لفتاة مراهقة. قرأتُ تقارير طبية حول الوفيات بسبب الحرائق وأجريتُ بحثًا مريعًا عن الصور على الإنترنت.

(6)

طلب مني مُخرج الفيلم إحضار قرن الكَرَكَدنِّ إلى منزله. أخبرته أنني لن أستطيع، لكنه بإمكانه المجيء واستلام القرن وقتما يحب. ثم قال إنه يريد مني رؤية شيئًا ما، وهو ما أثار فضولي، وقلتُ إنني سأمرُّ عليه.

كان هذا فيلمه الروائي الطويل الأول والمرَّة الأولى التي أعمل فيها معه. كنتُ قرأتُ النَّصَّ ورأيت أنه جيد- فيلم جريمة سريع الحركة، شماليٌّ ربما، لكنه معقول. بعض النقاط في الحبكة أثارت ضيقي، لكنه عمومًا لم يسألني رأيي عن هذه الأشياء، ولم أشعر أنا بحاجة مُعيَّنة لمشاركته.

من المفترض أن يكون الفيلم كدردشة صغيرة، حُلم جَمْعي مستغرق في نفس التعلُّق القديم، مستويات متباينة من الشعور بالذنب تجاه إساءة معاملة طفلة صغيرة. الجميع كان مذنبًا، لكن

البعض مُذنب أكثر من الآخرين. كانت الفتيات من الأطفال كأدوات العطف- عديمات الشخصية، ومع ذلك الأساس الكامل الذي ترتبط به الحوارات معًا.

يعيش في حيٍّ أنيق، في منزل عائلي كبير مجاور للبحر تمامًا. كان يصغرني كثيرًا -لم يقترب من الستين بعد، ربما- ولديه طفلان من مُمثِّلة معروفة. جلسنا بجوار النافذة التي تطلُّ على المحيط. كانت الأرضية مُغطَّاة بألواح الكرتون لحمايتها من انتهاك عُمَّال الديكور. كانت هناك بضعة عيِّنات ألوان مُعلَّقة على الحائط، مع بضعة ظلال مختلفة من الصبغات. تناول قرن الكَرَكَدنِّ منِّي وأزال لفافة القماش حوله، ثم وضعه على المنضدة بيننا.

رائع، قال في حيرة، مُجريًا أصابعه على سطحه القشري.

لكن عَمَّاذا تريد أن تتحدَّث؟ سألته، ولوهلة خطر لي أنه ربما يسعى إلى نصيحة ما بشأن منزله. أنني قد أختار ظِلَّ الصبغة الصحيح لحائط غرفة المعيشة.

تطلَّعَ إليَّ بخجل.

المُنتج يثير بعض اللغط، قال، وشعرتُ بارتياح.

الأمُّ، تابع القَولَ. لا يعتقد أن الشخصية قابلة للتصديق بما يكفي، ومنحني طبيب النَّصِّ بعض الاقتراحات؛ لذلك أعمل على هذه الشخصية، وقرَّرتُ أن أمنحها ندبةً، ترين؟ على وجهها. وخطَرَ لنا -خطَرَ لي- أنها بنفس عمركِ تقريبًا... وأتساءل إن كان بمقدوري طرح بعض الأسئلة بشأن... حسنًا، ماذا يشبه أن تكوني أنتِ؟

كان رأسه ذا شكل بائس. كعيش غراب مُتبرعم. وجهٌ على وتد وجبين متطاول- بالكاد يمكنك تمييز عينيه عن ذلك الجبين. تذكَّرتُ بغتةً رحلةً قُمتُ بها منذ سنوات طويلة، إلى ميانمار.

أتذكَّر الجلوس مع المُعالج بالأعشاب في خيمته. كان يرتدي جونلة طويلة، مزخرفة، وصدره وذراعاه تغطِّيها وشوم صغيرة جدًّا على شكل نبات الخيزران. كان يمسك بجمجمة قِردٍ فوق قِدْر، يُقشِّرها بسكِّين خبز. تحيط بنا أنياب أفيال ونُحاسيَّات مطروقة وأصناج وقوقعات سلاحف وجذور ماهوجني ومخالب نمور. امرأة شابَّة تجلس بجواره، جبينها وخدَّاها مطلية بالأبيض، وصبيها الصغير مُصاب بمغص قولوني ويبكي بشكل مثير للشفقة.

كان يتحدث بسرعة كبيرة، ومرشد الرحلة يترجم لي فوريًّا. حكى لي المعالج بالأعشاب عن وشومه، التي يمكن للسُّكَّان المحلِّيِّين من خلالها تحديد قبائل بعضهم البعض. شرحَ لي أنه نفسه كان من قبيلة المُونْ (Mon)، كمعظم أفراد قريته. كان مرشد الرحلة من المُونْ أيضًا. سألته عن شعب الكونياك (Konyak)، حيث إنني كنتُ قرأت أن هذه القبيلة منغمسة منذ زمن طويل في صيد الرؤوس وأنه مقابل كل رأس يجمعها رجل من الكونياك، يتلقَّى وشمًا مميَّزًا.

نظرَ إليَّ مرشد الرحلة غاضبًا ولم يترجم سؤالي. لاحقًا، أوضحَ لي أن الناس لا يثرثرون كثيرًا بشأن قبيلة الكونياك. تبدَّت نظرة حَذِرَة على وجهه، كما هي عادته، وتطلَّعَ حوله ليتأكَّد أن لا أحد يتنصَّت، وشرح لي أن رجال الكونياك قد توقَّفوا عن اصطياد الرؤوس تمامًا تقريبًا، لكن إذا حدث ورأوا إنسان برأس عجيب حقًّا، فقد يكون من الصعب على بعضهم مقاومة الإغراء. ثم غمزَ لي.

نظرتُ مباشرةً إلى مخرج الفيلم وفكَّرتُ أنه ربما يقع في المتاعب حقًّا لو صادفَ شعب الكونياك على الحدود بين ميانمار والهند. جلستُ صامتةً. تزايدَ حرجنا بسبب الصمت، لكن تلك لم تكن مشكلتي في الحقيقة.

لا، لكن حسنًا، أنا آسف- أعرف أن هذا شيء عبثي...

حسنًا، قلت. ماذا تريد أن تعرف؟

ليس لديَّ أدنى فكرة. هل فكَّرتِ أبدًا بعلاج ندبتك؟

عالجتها بأفضل ما أستطيع حينها. ثم اعتدتُ عليها.

نعم، بالطبع، قال، ثم ضحك.

نهضتُ واقفةً وسألته متى يخطِّطون لإنجاز التصوير.

في الربيع، قال لي. تصوير الفيلم يبدأ في مايو.

قائمة الإكسسوارات لم تتغيَّر على الإطلاق؟

لا... لكن ربما تصنعين ندبة آسترايد من أجلنا؟

بالتأكيد، قلت. آمل أن أكون قادرة على إنجازها.

كيف أُصيبَت بالندبة؟ سألته حينها. تردَّد المدير.

كما تُقرِّرين، قال أخيرًا. لم تُفسَّر أبدًا في النصِّ.

ودَّعنا بعض البعض، وعندما عدتُ إلى السيارة وبدأت في التراجع بعيدًا عن الحصن الخرساني لمُخرج الفيلم، رأيته واقفًا عند نافذة المطبخ، بلا حراك، رأسه مائلًا على جانبه.

كان يريد أن يَلِجَ داخلي. لا أقصد جنسيًّا. على الإطلاق. لكن بعض الناس هكذا، يشبهون هذا المخرج- لا يمكنهم رؤية أي شيء دون أن يرغبوا في اقتحامه. والد إلن، ألفور، كان هكذا أيضًا.

(7)

بمقدوري الشعور بتراجُع الضغط واقتراب العاصفة. كانت السماء رمادية كلون الصُّلب الأحادي. قرَّرتُ أن أذهب إلى المسرح حيث ما يزال الممثلون يتلعثمون عبر أول الفصول الخمسة. رأيتُ إلن تجلس في نهاية المنضدة، مُشتَّتة على ما يبدو، تفرك بثرةً في وجهها بإصبع سبابتها.

كانت ترتدي بضعة أساور في المِعصم، من النوع الذي يحصل عليه الناس في مهرجانات الموسيقى. بعضها قديمة ورثَّة، لكن الأخرى كانت أحدث. كانت هناك جرعة من طلاء أصفر النيون على أظافرها، تحمل أشكالًا نصف قمرية من القذارة تحتها.

أثناء استراحة القهوة خطوتُ إلى الخارج لتدخين سيجارة، ثم خرجت إلن في إثري بعد دقائق قليلة. حيَّتني باقتضابٍ ثم استغرقت في أفكارها، وهي تمجُّ سيجارتها وتُحدِّق عبر الشبكة الحديدية. كنتُ

أقف مُنتبهةً. لاحظتُ أن حذاءها الجلدي كان باليًا، الجلد قد تقشَّر عند الأصابع، كاشفًا عن القماش الرمادي أسفله.

تحت الشبكة الحديدية كانت هناك مئات من أعقاب السجائر، لفافات حلوى بلاستيكية بيَّضَتها الشمس، علب بيرة معقوصة، بطاقات بنكية. خطَرَ لي أن أسألها، مازحةً بعض الشيء، إن كانت قد أضاعت بطاقتها، لكن كان بمقدوري أن أرى أنها مشغولة الذهن بشدَّة.

وقفنا في صمتٍ وتأمَّلتُ في شكل رأسها. كان طبيعيًّا إلى حدٍّ كبير، باستثناء عند القاعدة، حيث كان منبسطًا قليلًا. من الواضح أن أمَّها لم تُدِرهُ بما يكفي، فكَّرتُ في ذلك فيما تنظر إليَّ ببرود.

ماذا؟ سألتني، وجفلتُ. تجمَّدتُ، لم أقل شيئًا. رميتُ سيجارتي فحسب عبر الشبكة الحديدية وقفلتُ راجعةً إلى غرفة الاجتماعات.

يا إلهي، إنها عبقرية، هذرَت مُصمِّمةُ المشاهد، وغمغم الجميع بالموافقة. قال المُخرج إنه لم يَرَ عملًا أولًا كهذا طوال عقود.

وشابَّة جدًّا، قال أكبر الممثلين الحاضرين سنًّا هازًّا رأسه. تذكِّرني بمسرحية بينتر الأولى[1]، أضاف.

الأول؟ نخرَ الممثل التالي في السِّنِّ. إنها تشبه أعماله الأخيرة أكثر، إن كان لي أن أقول. مسرحيات بينتر الأولى كانت مُمِلَّة للغاية...

مُملَّة؟ سأله الأكبر سنًّا لكنه لم يأخذ الطُّعم.

نعم، قال التالي في السن. شاعريةً جدًّا لحدٍّ أنها تصيبك بصداع! هذه المسرحية ذات بناء مُحكم جدًّا، منطقية جدًّا.

---

(1) هارولد بنتر، كاتب مسرحي ومخرج وممثِّل بريطاني، حاصل على جائزة نوبل.

توجد أربع شخصيات في المسرحية.

الحفيد *(18)*:

مسحة من الأزرق الملكي. خصلات صغيرة جدًّا تتحرّك من تلقاء نفسها. عُري يصيب بالملل. رائحة استمناء بائتة.

الابن *(42)*:

لونٌ نيليٌّ لامع. مدفوع بالشاكرا السُّفلى. مُتسمِّر دائمًا للإمساك بقوَّة باللؤلؤة الصغيرة الزَّلِقَة العالقة في إستِه طوال الوقت.

العمُّ *(65)*:

لا توجد نقطة بؤرية. دوَّامة من حواشي الجلد المدبوغ. ظلال. مرض باطني.

الأب *(70)*:

عيناه صغيرتان جدًّا، لآلئ زَلِقَة، عليه أن ينتبه ألَّا تخرج من جيوبه- أو الأسوأ: أن ترتدَّ داخل جيوبه وتمرَّ عبر منخريه. تصحبه مجموعة من المعجبين العقلاء.

أتصوَّر خشبة مسرح بسيطة جدًّا، قالت مُصمِّمة المشاهد بحماس.

بدون أرضية سوداء، قال المُخرج. ومن أجل الرَّبِّ، فليرتَدِ الممثِّلون أحذيةً.

إذا قمنا بتركيب أرضية، ستذهب ميزانيتنا بأكملها لذلك.

لتجد حلًّا فحسب. لا أهتم إذا غطَّيتِها بأكياس بلاستيكية، لكن ليس بالألواح السوداء تلك- سئمتُ منها.

أتصوَّر كل شيء باللون الرمادي...

ليس الرمادي، اجعليها... وليس الأبيض أو الأسود أيضًا. لن يتكلَّف الأمر أي شيء لتلوين المناظر، أليس كذلك؟ أين الفتاة؟ ألا يُفترض أن تعود بعد الاستراحة؟ متى يمكننا أن نبدأ؟

ربما رحَلَت، قال أصغر الممثلين سنًّا. صادفتها عند المدخل، وهذا ما بدا أنها فعلته.

رحَلَت؟ كرَّر المُخرج. لكننا لم ننتهِ- ما تزال أمامنا ساعتان.

أوف. كما قلنا- إنها عبقرية بحقٍّ، قال أكبر الممثلين سنًّا.

لا علاقة بين الذكاء وأخلاقيات العمل السيئة، قال التالي في السن.

بالطبع له علاقة، قال الأكبر سنًّا. عندما تنادي المُلهِمة، فأحيانًا ما يتوجَّب عليك الرحيل. هي تنادي وأنت ترحل.

تجاهل التالي في السِّنِّ هذه الكلام. تَسلَّلتُ خارجةً، لستُ في حاجة لقول وداعًا.

كانت إلن تمشي عبر طريق ميكلابراوت مرتديةً بُرنُسًا رماديًّا يَبرُز من تحت ياقة كِنْزتها المجدولة. كان رأسها متدليًّا، وتتحرك متباطئةً، جارَّةً قدميها على الرصيف.

لا بُدَّ أنها تشعر بالبرد، فكَّرتُ، مُتذكِّرةً حذاءها الجلدي، متخيِّلة أنه حتمًا نَشَعَ على الفور، أن جواربها الرياضية غدت رمادية من البَلَل، وأن أصابعها باردة. قُدتُ السيارة حتَّى جاورتها عند إشارة المرور التالية، فتحتُ باب مقعد الراكب وناديتُ عليها، سألتها إن كانت تريد توصيلة.

لكـن كاتبـة المسرحيـة نظَـرَت إليَّ عابسـةً، تحـوَّل اللـون الأحمـر إلى الأخـضر، وبـدأت السـيارات الأخـرى في النفـير لأتحـرَّك.

سـأقلُّكِ إلى المنـزل! كـرَّرتُ، لكـن إلـن هـزَّت رأسـها فحسـب، رفعـت إحـدى يديهـا، بشـخبطة غـير متقنـة عليهـا، لم أسـتطع قراءتهـا.

كما تُحبِّين، أيها المسخ الصغير، غمغمتُ، وانطلقتُ في طريقي.

(8)

لم تكن قادرة على الشعور بقدميها. وكأن هناك مكعبات ثلج في حذائها، وفي كل خطوة تتَّخذها، تشعر بملمس عجيب في حذائها، وكأنها على وشك السقوط. ستصل إلى البيت سريعًا.

لماذا كانت قدماها باردتين جدًّا هكذا؟

لأنها لا تحمل رخصة قيادة.

لماذا لا تحمل رخصة قيادة؟

لأنه لم يكن لديها أبٌ.

لماذا كانت قدماها باردتين جدًّا هكذا؟

كان بمقدور أمِّها اقتراح دروس في القيادة عندما كانت إلن في السابعة عشرة، لكنها نَسِيَت. نَسِيَت احتياجات الآخرين، واحتياجاتها، وكل شيء.

لماذا كانت قدماها باردتين جدًّا هكذا؟

كان شيئًا قاله أحدهم، في جلسة القراءة. قال شيئًا بخصوص شيءٍ كانت إلن كتبته وأثار مشاعر وذكريات سلبية. كان شيئًا مُتوهَّمًا. كانت الأصوات في رأسها قد بدأت في تمييز نفسها، صوتًا عن الآخر، كرصاصة انطلقت داخل رصاصة، ثم اكتَفَت هي. قرَّرَت المشي عائدةً إلى البيت.

ذلك الشيء الذي قاله أحدهم. تذكَّرته كلمةً بكلمة. كان ذلك الممثل التالي في السِّنِّ، الذي يلعب دور العمِّ. كان يتحدث عن الابن في المسرحية:

صعاليك جدًّا، هؤلاء الصبيان بلا أب- لا آباء، لا انضباط! ثم ضحك، ولم تَعُد إلن قادرة على التحمُّل. لم تستطع حتَّى قول وداعًا لأيِّ شخص، غادَرَت فحسب.

لماذا كانت قدماها باردتين جدًّا هكذا؟

لأنها خَطَت إلى الخارج مرتديةً جوارب رياضية وحذاء جلديًا مثقوبًا في منتصف الشتاء.

كانت في التاسعة عشرة فحسب، وكتَبَت مسرحية كاملة- وهو ما كان شيء رائع جدًا منها. والآن سيعرضون المسرحية في المسرح، وها هي... مَن كانت على استعداد للانسحاب من كل شيء، وتعاني من رُهاب اجتماعيٍّ، لحدِّ أنها لا تستطيع ركوب الباص حتَّى. لم تكن قادرة على رؤية الحدود الفاصلة، أو معرفة أين تبدأ هي وأين ينتهي الآخرين.

عندما تدلف إلى باص ممتلئ بالغرباء، تُصاب بالسقم وبألم في معدتها، وترتشح عرقًا باردًا. سيصطدم أحدهم بها، عَرَضًا، وسيقتلها الرعب. الباص يغصُّ باللحم والعظام والدم ويرتعش كوحدة واحدة. هذا الرعب. أيُّ جزء منه كان لها وأيٌّ كان الآخرين؟ كيف لها أن تعرف شيئًا لم يعلِّمه أحدٌ لها؟ أي أطراف تنتمي لها وهي تشعر بها جميعًا، لكن في نفس الوقت، لا تشعر بأيٍّ منها؟

لماذا كانت قدماها باردتين جدًا هكذا؟

أوقَفَت سيارتها عند إشارة المرور، فتَحَت باب مقعد الراكب. تلك السيدة الغريبة ذات الندبة التي دائمًا ما كانت تنظر إلى إلى كما لو كانت تنتقي شيئًا من أجل العشاء. تمضغ عِلْكتها بفمها مفتوحًا وأبدًا لا تقطع تَواصُلَ الأعين، تجيء وتروح كما تحبُّ. لم ترغب في الركوب معها. تحبُّ المشي حتَّى بيتها مُرتديةً جواربها الرياضية، بالمياه الجليدية المُزبِدة في حذائها الجِلدي.

أووه، إييي، قالت عندما انتزعت حذاءها في المدخل، ثم خرجت أمُّها من الرواق الطويل القادم من المطبخ. في نهاية الغرفة الكبيرة كانت هناك منضدة فورميكا صفراء، ومجموعة بطاقات صفراء، وسجائر صفراء تضعها أمُّها في مِنفضة صفراء بينما تستخدم أصابعها الصفراء لتقليب أوراق صفراء ذات ثقوب صفراء ومشاعر صفراء تختلط مع أظافرها الصفراء وسجائرها الصفراء، التي تحترق للأبد بين أصابعها أو في المِنفضة، وتتداخل مع الخصلات الصفراء لشعرها الذي يستقرُّ على خدَّيْها وينساب على كتفيها ومنامتها الصفراء.

أوه، حبيبتي الحلوة، قالت أمُّها، فيما تساعد إلن في انتزاع حذائها.

حمام قدمين؟ اقترحت، لكن إلن قالت أنها لن تحتمل التغيير المفاجئ.

لكنه سيؤلم للحظة فقط، قالت أمُّها. ثم ستشعرين بالدفء وكل شيء سيكون على ما يرام. هذا جيِّد للروماتيزم أيضًا، وكذلك ثآليل القدمين، إذا كنتِ تعانين منها.

أنا في التاسعة عشرة من عمري يا أمِّي. بالطبع ليست لديَّ ثآليل في قدمي.

مهما كان ما تقوله أمُّها، ورغم أنها لا تسمع إجاباتها أبدًا، إلَّا أنها أجابتها لأن ذلك كان أسهل. إذا توقَّفَت إلن عن الإجابة، ستستمرُّ أمُّها في قول أيِّ ما كان. جُمَلٌ متطاولة مبنية على لا شيء مطلقًا.

لا علاقة للعمر بهذا، قالت أمُّها. قد تكون فكرة جيدة أيضًا أن نُرطِّب قدميك ثم نلفُّها في الصوف، ونسندها على المدفأة، ثم تخلدين للنوم. كثيرًا ما تكون الثآليل على شكل خيوط متشابكةٍ- عليكِ فحسب إيجاد البقعة الصحيحة لجذبها...

ثم اختفت عائدةً إلى كل ذلك الأصفر، متلاشيةً في الدخان والصفحات والبطاقات.

تطلَّعَت إلن إلى خارج نافذة غرفة نومها المُطِلَّة على الخليج الصغير. كانت فرقة البحث والإنقاذ تُجري تدريبًا باستخدام عوَّامات النيون وشُعلات الطوارئ والأضواء الوامضة في ظلام الشتاء. قَضَت يومين في العالم الخارجي وأوشَكَت قدماها على التَّمزُّق من البرد. ثلاثة أيام أخرى بهذا الشكل وسيتجمَّد جسدها بالكامل. آلمتها الحرارة عندما اخترقت إحساسها المتخدِّر.

كان المُخرج قد قال إن عليها أن تجلس معهم طوال الأسبوع الأول، ثم بإمكانها أن تقرر متى تحب الحضور بعد ذلك. كان الباب دائمًا مفتوحًا. انقضى يومان من الأيام الخمسة وانتهيا. لن تقضي دقيقة واحدة أخرى هناك.

في تلك الليلة، كانت جالسة في غرفة المعيشة مع أمها يَفتِقان كِنزةً صوفية معًا. كنزة قديمة لأبيها بدأت في الاهتراء وأرادت أمُّها أن تعيد استخدام خيوطها مجدَّدًا. لأن كل الأشياء تأتي بقصَّة، وأحيانًا ما تتبدَّل القصَّة بفعل شيء واحد.

لِنَقُل مثلًا، إن هذه الكِنزة بقِيَت مُتدلِّيةً في الخزانة، قالت أمُّها، ولِنَقُلْ مثلًا إن حريقًا نشب في المبنى وأن الكِنزة قد احترقت بالكامل؛ حينها قد تتبدَّل القصة في رأسكِ، حتَّى وإن كانت حينها قد وصلت إلى نهايتها، قالت الأم، وأنصتت إلن؛ لأن ذلك كان أسهل. طالما حاولت عدم الإنصات، وكان ذلك أسوأ.

كانت لديَّ صديقة منحتني قلادةً. من أين حصلتِ على هذه القلادة؟ سألتُها، لكنها رفضت إخباري؛ ولذلك لم أرتدها أبدًا حتى ذات ليلة. كانت بلون أخضر يناسب فستاني. كحجر المَلْكيت الأخضر

البرَّاق، أتذكَّر. وفي تلك الأمسية، قابَلتُ زوج صديقتي السابق ووقعتُ في غرامه. تتذكَّرين أرسايل، أليس كذلك؟ لم أستوعب الأمر إلا بعد وقتٍ طويل. طويلًا بعد أن توقَّفَت صديقتي عن التحدُّث إليَّ ورحلت أرسايل. الملكيت. علَّقتُ القلادة على سلَّة القمامة، وامتزَجَت بها جيدًا؛ لأن سلَّة القمامة كانت بلون أخضر داكن وتُشعُّ كالملكيت كذلك. اسمعي، كان هو مَن أعطاها القلادة في الأصل، ولم تَعُد صديقتي تحلم حتَّى بارتدائها بعد طلاقهما. تُذكِّرها به كثيرًا لحدِّ أنها منحتها لي.

ماذا ستفعلين بخيوط الصوف؟ سألَت إلن أمَّها. كانت تلفُّ خصلة غزل حول يديها بينما تفكُّ أمها الغُرَز برفق.

سأربطها بشاهد قبره بشكلٍ ما.

شاهد قبره؟

نعم، هذا ما أتخيَّله.

سيتخلَّصون منها... أو ستذروها الرياح.

كانت أرملة ألفور وأطفالهما الثلاثة قد أزالوا كل شيء وضعته أمُّ إلن على قبره؛ ما أثار غضبها واهتياجها. جلَسَت إلن بجوارها وحاوَلَت مواساتها:

كل الأشياء تنتهي في البحر، قالت لها.

في مقلب النفايات تقصدين، قالت أمُّها.

مقلب النفايات يقع في البحر، قالت إلن.

إذن فنحن في البحر، قالت أمُّها.

نحن في البحر، قالت إلن.

كل شيء نظيف في البحر، قالت أمُّها.

كل شيء في البحر يتحرك دائمًا، قالت إلن.

لم تكن تعرف إخوتَها غير الأشقاء. أحيانًا ما كانت تراهم في البرامج الفنِّيَّة على التلفاز أو تسمعهم في الإذاعة يتحدَّثون عن أبيهم. عن أبيها. كانوا جميعًا باحثين أدبيِّين أو مديرين ثقافيِّين ويعملون من أجل الحفاظ على ميراث أبيهم.

مثلًا، شيَّدوا نصبًا تذكاريًّا على شَرِفه بجوار المنارة في جروتًّا، وافتتحوا متحفًا في بيته. ثم أسَّسوا مؤسسة تمنح جائزةً لأفضل قصيدة.

أفضل قصيدة.

عندما كانت إلن في التاسعة من عمرها، قدَّمَت قصيدة في المسابقة. قرأتها أمُّها مرارًا وتكرارًا، وقالت إنها ستفوز بالجائزة حتمًا.

السماوات تتشقَّق،

عندما يسمنُ الرَّبُّ.

القمر جُرْحٌ،

والسُّحب قمامةٌ.

نظروا إلى المظروف ورأوا اسمكِ؛ ولذلك لم تحصلي على الجائزة. هذا هو السبب حتمًا! قالت أمُّها، هاتفةً. لم تكن إلن متأكِّدةً. قرأت القصيدة مُجدَّدًا ولم تعد تظنُّ أنها جيدة، بل طفولية بعض الشيء.

في كل عام طوال السنوات السبع التالية -أو حتَّى العام الذي بلغت فيه السادسة عشرة- كانت تقدِّم قصائد تتحسَّن شيئًا فشيئًا. دائمًا ما كانت أمُّها متحمِّسةً تجاه كل القصائد بنفس القَدْر. لكنها أحبَّت القصيدة الأخيرة على الأخصِّ:

ابتلعتُ الحَجرَ الذي منحتَني إيَّاه
كبيراً بما يكفي لأختنق به
أو أنه
ثقيلًا جدًّا لحدٍّ أنني عندما قفزتُ
سقطتُ بعنفٍ
وغرقتُ عميقًا
لكنْ خفيفًا بما يكفي
لأثب واقفةً مجدَّدًا
أنفاسي لاهثة
وألقمُ الخُطَّاف
الذي ألقيتَه،
ليس لي بالضرورة
لكنك تعرف،
وعندما اخترق لِثَتي.
استقرَّ بإحكام
ونزفتُ
لكن ليس بما يكفي
وكان الحَجرُ ثقيلًا بما يكفي
لحدٍّ أن الخُطَّاف توقَّفَ بغتةً
وتساءلتُ
فيما أجرُّ نفسي إلى الشاطئ،

عن إرادة أن أحيا

على طبيعتي؛

ذلك أنها إرادة لا يمكن إخمادها،

وعمَّا كنتَ ستفعله

في تلك اللحظة ذاتها

لو أصابك الملل

هل ستغزر الدبابيس في الخرائط

تغلق الباب بالغِراء

تحشر رقائق القصدير في ثقوب الأقفال

ترسم الصراع داخل

إنسان آخر

بدماءٍ من أوردتك

أو تسوِّد النوافذ

بأكياس القمامة

أو ربما تزرع شيئًا ما

تحت الأضواء تحت الحمراء

شيئًا ينغلق على نفسه في ضوء النهار

ويتفتَّح في الليل

شيئًا يصيبه الضعف وسط كل هذه

الفوبيا المكبوتة، المريعة، الحمقاء

عديمة الدماء

وباطنا قدمَيَّ ينضغطان في الرمال
ثم أرفعهما لنمشي معًا إلى الشاطئ
وأتذكَّر أن هناك التقينا
وأتذكَّر أن هناك رأينا بعضنا البعض
وأتذكَّر أن هناك قلنا وداعًا
وأتذكَّر أن هناك نِمنا
وأتذكَّر أن هناك أُصِبنا بالعدوى
لكن لا أتذكَّر إن كنَّا قد شُفينا
ولا أعرف إلى أين رحلتَ
وكسرتُ الزجاجة التي منحتَني إيَّاها وكذلك العطر
انتزعتُ القلادة التي منحتني إيَّاها واللآلئ
مزَّقتُ أسناني ويدَيَّ
لم تَعُد يدين
تتحسَّسانك في الظلام
تمسكان بلا شيء وتتوقان
إلى شيءٍ ما في العدم
لكنهما وجدا شيئًا آخر في العدم
شيئًا لا إنساني وبارد
في العدم

وهـي قصيـدة لم تَفُـز أيضًـا، وحينهـا هتَفَـت أمُّهـا وقالـت إن إلـن لم تفـز لأنهـا كانـت مَـن تكونـه. قـرأت إلـن القصيـدة مجـددًا وأدرَكَـت جيـدًا لمـاذا لم تفـز. لم تَعُـد تؤمـن أن القصيـدة قويَّـة، بـل مُراهقـة بعـض الـشيء.

(9)

كانت القصيدة تدور حول صبيٍّ قابَلَته على الإنترنت. كانا يدردشان في الليل بعد أن تخلد إلى الفراش، وأحيانًا ما تصلها منه رسائل أثناء النهار، ومقاطع فيديو قصيرة لمحرِّكات صاخبة في متجر صيانة السيارات الذي يملكه عمُّه أو لقدمٍ ترتدي حذاءً رياضيًّا تسحقُّ عُلبة ألومنيوم حتى تختفي.

بعد بضعة أسابيع من هذا، أرادت مقابلته شخصيًّا، لكنه يبدو أنه لم يرَ رسالتها. ذكَرَت ذلك بضعة مرَّاتٍ أخرى قبل أن يوافق ويقترح عليها أن يذهبا لتناول الآيسكريم. وصَلَت إلى المكان قبله، اختارت مقعدًا وبدأت في العبث في هاتفها، ثم رأته يدخل إلى المكان أخيرًا، بالضبط تمامًا كما تخيَّلته- صبيًّا طويل القامة، ذا شَعرٍ طويل وأطراف طويلة، ذراعَيْ معطفه وساقَيْ سرواله قصيرة بعض الشيء.

لمحها وابتسم، احمرَّ وجهه قليلًا، وابتسمت هي بدورها. عندما جلس وسألها إن كان بإمكانه أن يشتري لها آيسكريم، مدَّت يدها عبر المنضدة. عندما لامست خدَّه بأطراف أصابعه، تراجع في مقعده. كانت إلن تتعرَّق تحت طبقة كثيفة من مسحوق التجميل المضغوط. شعَرَت بحكَّةٍ في قِناعها، وسألها الصبي لماذا فعَلَت ذلك.

أردتُ فقط أن أربِّتُ على خدِّك، قالت، مُعتقدةً أنها بَدَت منحرفة جنسيًّا- منحرفة ذات مسحوق مضغوط تضع لَصقات جافة تتقشَّر من على وجهها، منحرفة ذات لُطَخ من اللعاب الجاف على زوايا فمها، منحرفة بفتات على وجهها وذباب يحوم حول رأسها.

كانت على يقين أنه سيتراجع عن الأمر بأكمله، الآن وقد رآها بشخصها وأدرك أيَّ مسخٍ تكونه. لكنه حينها أمسك بركبتها واعتصرها تحت المنضدة. تدلَّى شَعرُه على ظهره بين حافَّتَيْ كتفيه، كان من الواضح أنه لا يُمشِّطه أبدًا؛ لذلك كان على شكل جديلة كبيرة واحدة فحسب.

لماذا لا تمشِّط شَعرَك؟ ضحَكَت إلن بفتور، ثم تلاشت ابتسامته. ضيَّق عينيه ناظرًا إليها، أحكمَ قبضته على ركبتها.

كانا عادةً ما يلتقيان أثناء النهار، وهو الوقت الذي ينبغي على إلن أن تكون في المدرسة، ويتسكَّعان في سيارته يحتسيان البيرة الفاترة، يدخِّنان السجائر، يتعانقان، أو يجلسان فحسب ولا يقولان شيئًا. لم تكن لديه وظيفة ثابتة، بل يعيش مع أبويه ويعمل على مهام عجيبة في جراج عمِّه.

أحيانًا، كانت تذهب إلى منزله. كانت غرفته صغيرة، ولا تحوي في الحقيقة أيَّ شيء بخلاف فراش ومكتب، وجهازَي كمبيوتر، وبعض الحبال، وذلك الجردل البلاستيكي الأخضر الذي لا يعني شيئًا على

الإطلاق. كان جردلًا كتلك الجرادل التي يلعب بها الأطفال في الرمال. كان يضع صحن كعك أعلاه، وكأنه غطاء.

ماذا لديك في الجردل؟ سألته إلن، وأجابها أنه يوجد ضفدع داخله.

ضفدع! كرَّرَت إلن باندهاش، وأرادت أن تلقي نظرة في الجردل، لكنه أبدى تعبيرًا جادًّا على وجهه وهزَّ رأسه. ثم أطفأ إضاءة الغرفة وشغَّلَ أغنية سيمون آند جارفونكل «صوت الصمت» بدرجة صوت انفجارية. جلَسَت إلن ساكنةً في الظلام وانتظَرَت حتى تتكيَّف عيناها أو يبدأ هو في ملامستها، لكن لم يحدث شيء من ذلك.

كانت ترغب في الذهاب إلى بيتها، لكنها تعرف أنها ستندم فور أن تفعل ذلك. فور أن تغادر، سينشغل عقلها به، به وبكل الأشياء العجيبة التي قالها وفعلها، وحينها ستحاول فكَّ ألغازها لتفهم ما كان يريده أو لا يريده، وفي النهاية سيختلط عليها الأمر بالكامل وتتنفَّس بصفيرٍ كلاعب ملاكمة، عاجزةً عن الجلوس ساكنةً. ثمَّ سيكون عليها فعل شيءٍ ما. لا يهمُّ ماذا. مجرَّد شيءٍ ما. أن ترسل إليه مقطع فيديو لقطَّةٍ تردي زيَّ أسد. ببغاء زاعق.

الترقُّب. ستجلس، مشلولةً على خازوق في الضوء الزاعق الصامت للنهار وترى الناس من حولها في كل مكان. أطفالٌ آخرون في مثل عمرها يتحدثون عن الاختبارات الموحَّدة والوظائف الصيفية وشيئًا ما آخر لن تسمعه. لن يثير ذلك اهتمامها. ستجلس هناك فحسب حتى لا تعود قادرة سوى على فعل شيءٍ آخر، كأن ترسل إليه رسالة أخرى. ربما يجيبها حينها.

أبدًا لم يقترح أن يعيشا معًا. لم يُقبِّلها عندما سنحت له الفرصة لأول مرَّة. لا بُدَّ أنها مسخ. نوعٌ من المتسلِّقين، اللحوحين، ذوي الاحتياجات الشاذَّة.

جلَسَت في الظلام وانتظَرَت. لم تتمكَّن من تَبيُّن شكله، ورأت أنه يستلقي على الأرض برأسه تحت المكتب. فور أن انتهت "صوت الصمت"، سألته إن كان بإمكانهما فعلها.

كان يستلقي بلا حراك تمامًا ولم يقل شيئًا. لوهلة، تساءلت إن كان سمعها، ثم الشيء التالي الذي خطَرَ لها كان أنه ربما يتظاهر بالنوم؛ بالتالي يجنِّب نفسه إجابتها أو بالأحرى الاضطرار لإجابتها.

هل جرَّبتِ... من قبل؟ سألها أخيرًا.

لا، همَسَت.

حسنًا، قال، لكن هل يمكننا فعلها لاحقًا؟ أنا مرهق للغاية.

حسنًا، قال، وأجبرت نفسها على الرحيل.

أمهَلَت نفسها ثلاثة أيام قبل أن ترسل إليه برسالة، عبارة عن تسجيل صوتي. عندما اتَّصلَت في النهاية لسؤاله إن كان بإمكانها المجيء إليه، شعرَت وكأن شهورًا قد انقضت، ولم تستطع فهم كيف بدا لا مباليًا هكذا.

بالتأكيد، أيًّا كان، قال بعد صمت قصير. بالتأكيد يمكنها المجيء، لكن عليه أن ينتهي من شيءٍ ما أولًا.

ربما أتصل بكِ لاحقًا، حسنًا؟ قال، بعجلة مباغتة ودون انتظار ردٍّ.

حسنًا، قالت إلن، لطنين الهاتف.

في تلك الليلة، استقلَّت الباص إلى منزله. لم تتصل مُسبقًا- كانت اتَّخَذَت قرارها برؤيته. سمَحَت لها أمُّه بالدخول. انتزعت حذاءها

ومعطفها في ردهة الاستقبال، وانسلَّت إلى الرائحة الخانقة لدُهن حَمَل مشويٍّ، عشاء الأحد، ثم صعدت لأعلى، قلبها يخفق بعنف فيما تطرق باب غرفة النوم.

لم يتبدَّل التعبير البارد في وجهه عندما رآها، لكنه أمسك رأسها بقوة، مُمسِّدًا شعرها ومحتضنًا أذنيها بيديه، ومُقحمًا رأسها بين ذراعيه، وشعرت إلن بدفئه، تشمَّمَت رائحة نوم صبي، رائحة قُمصان، رائحة عَرق حُلو، ولم ترغب في أن يتركها، بل أن تبقى هكذا، متخيِّلةً أن جسده كان جسدها؛ وبهذا تهرب من نفسها وتَنسى وُتنسى.

ثم أبعدها عنه برفق وقال إنه يحتاج لإنهاء شيءٍ ما، لكن لا أباس إن أرادت البقاء بينما يفعل ذلك.

كان مصباح السقف مُضاءً في غرفة النوم. وراء الباب، كان بمقدورها سماع قعقعة الصحون التي تغسلها أمُّه، أخبار المساء تصلصل على التلفاز. كان ظهره مستديرًا إليها فيما يضرب على لوحة مفاتيحه. جلست على فراشه. كان شَعرُه مفتولًا بإحكام في تلك الضفيرة الكثيفة لحد أنه ذكَّرها بذيل القندس الذي كانت رأته في أحد الأفلام الوثائقية عن الطبيعة، يسدُّ النهر ليلًا.

نفدَ صبرها، نهضت واقفةً وخطت إليه، أمسَكَت بالضفيرة وقالت إن بإمكانها فكَّ العُقَد إذا أراد. جفلَ، وابتعد عن لمستها.

أبدًا لا ترغب في رؤيتي، قالت إلن.

كنتُ أساعد صديقي...

أتحبُّ أن تساعده بدلًا من أن تفعلها معي؟

لم يجب، لكنه أزاح يديها، واستدارَ مجدَّدًا إلى جهاز الكمبيوتر.

لماذا أنت معي بالضبط؟ سألته إلن.

وقعَ نظرها بالصُّدفة على الشاشة، سوداء ذات جُمَل غير مقروءة تنساب بسرعة. على المكتب كانت هناك كومة من أسلاك الكمبيوتر وجهاز كمبيوتر آخر بشاشة سوداء وشيء أخضر نيوني ما يومض عليها. ثم رأت الجردل ذا طبق الكعك أعلاه.

قبل أن تجد فرصةً للتفكير، اختطَفَت الطَّبقَ وتطلَّعَت إلى داخل الجردل. كان هناك ضفدع ذابل في قاعه، لا يزيد حجمه على علبة كبريت.

كانت ساقاه تمتدَّان من جذعه المهزول، واشتمَّت إلن رائحة العفن الخافتة.

انتشل الطبق على الفور من يديها، وأعاده إلى أعلى الجردل، وصفعها على وجهها.

ليس لإيذائها.

كما لو لتأديب طفلة صغيرة.

(10)

كانت الصناديق الكرتونية تنتصب في وسط أرضية غرفة المعيشة. شغَّلتُ أخبار المساء وخطوتُ مُستديرةً حول الصناديق بضعة مرَّات، لكنني توقَّفتُ بغتةً لأنني تذكَّرتُ اللحظة التي ماتت فيها جدَّتي بالضبط. كانت بُرعمًا على فرع كان له أن ينتهي، في أحوالٍ أخرى، أجْرَدَ وسقيمًا. اسطعي، قالت ورقة لنفسها، ثم تكاثَرَت وماتت. في تلك الثانية ذاتها، تشبَّثتُ باللحظة التي وُلِدَت فيها أمِّي ثم ماتت، واللحظة التي وُلِدتُ فيها وسأموت. لم تأتِ بعدُ لحظة موتي، ومع ذلك، أمسكتُ بها، في موضع ما في المستقبل.

أشعلت سيجارة وتذكَّرتُ الكِنزة على الفور. خيوط صوفية خشنة تنسحب مُلتئمةً حول أصابع الأمِّ فيما تحيكها. شرَعَت في الحياكة عندما أقلَعَت عن التدخين، وكانت الكِنزة من أجلي.

هـل سـأجد الكِنـزة في الصنـدوق؟ تسـاءلتُ. إذن سـيكون دَمُ الأُمِّ في الصنـدوق. الحمـض النـووي لأمـي في الصنـدوق. تكوينهـا الفريـد مـن نوعـه يقبـع في الصنـدوق.

كانـت الصناديـق مـن متجـر بقالـة. بـازلاء خـضراء مُعلَّبـة مـن أورا. بـودرة أطفـال چونسـون. عُلب مـن خليـط حسـاء "أضِـفْ المـاء فحسـب". كانـت قـد عُنونَـت مـن قبـل، لكـن الملصقـات شـطب عليهـا. ثـم عُنْوِنَـت ثانيـةً.

عـلى التلفـاز كانـت توجـد صـورة لجيفـة حـوت ذبيـح. تطلَّعـتُ خـارج النافـذة ورأيـتُ رجـلًا لم أتعـرَّف عليـه يقـف عـلى الـدَّرَج. شـاحنة توصيـل بيضـاء بـلا علامـات مميَّـزة تقـف في المدخـل. خطـوتُ إلى البـاب.

مسـاؤك طيـب، قلـتُ، ناظـرةً إلى الرجـل- بـلا تعبـيرات عـلى وجهـه، في منتصـف عمـره، شـاحب، يرتـدي معطـف فـروة بقلنسـوة وقفَّازيـن.

جئتُ لاستلام الصناديق، قال بصوتٍ بارد.

الصناديق؟

الصناديق التي وجدتِها في قبو جدَّتك، قال.

لكنها تحمل اسمي عليها، قلت. إنها صناديقي.

لم يجبني الرجل؛ لم تتبدَّل تعابير وجهه.

حسـنًا إذن، قلـتُ وفتحـت البـاب عـلى اتِّسـاعه. لم ينـزع الرجـل حـذاءه عندمـا دلـف. خطـا مبـاشرةً إلى غرفـة المعيـش، تنـاول الصنـدوق الأول، وحملـه إلى الشـاحنة في الخـارج.

مـاذا يوجـد فيهـا؟ سـألته عندمـا عـاد لأخـذ الصنـدوق التـالي، لكنـه حـدَّق فيَّ وكأنـه نبتـة كُرنـب ولم يُجِـب. أخـذَ آخـر صندوقـين في نفـس

الوقت، ورصَّهم في مؤخِّرة الشاحنة، والشيء التالي الذي رأيته، أنه قاد الشاحنة مُبتعدًا دون التطلُّع إليَّ أو قول "وداعًا".

خطوتُ عائدةً إلى غرفة المعيشة؛ إنه وقت العمل. كان لديَّ قالب من الفايبرجلاس لفتاة مراهقة في القبو. نزلتُ مُتمايلةً إلى هناك، مستندةً إلى الحواف. خطوتُ وتناولته، وسحبته عائدةً به عبر الدَّرج الصاعد. أخليتُ مائدة غرفة الطعام ووضعتُ القالب عليها، فاتحةً إيَّاه بحيث ظهرت أمامي تجويفات الفتاة.

لم أستطع تذكُّر اسمها البتَّة، ابنة المُخرج التي تطوَّعت لقَولَبة جسدها بالجصِّ. استغرقَ الأمر يومًا بأكمله. ثم صنعتُ قالبًا من الفايبرجلاس للاحتفاظ به. يدور النَّصُّ حول مُنحرِفٍ جنسيًّا يشتهي الأطفال يطلب لنفسه دُميةً من السليكون على الإنترنت تشبه طفلةً. أسئلة أخلاقية لا تنتهي، مُرهقة بشكل ساحق. لكن الدُّمية خرجت بشكل جيِّد حقًّا، إذا كان لي أن أقول لنفسي.

كم يبلغ عمر الفتاة الآن؟ عشرون ربما، لكن ها هو جسدها، لم يتبدَّل.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

(11)

بمقدوري رؤية شبح الموت (*Feigð*)[1]، رؤية موتِ أحدهم يقترب، وعادةً ما أدرك الأمر عندما أقول وداعًا لشخصٍ ما للمرة الأخيرة. في الحقيقة، أحيانًا ما أخطئ. لكنني أصيب أكثر ممَّا أخطئ.

لم يكن الـ *Feigð* مرئيًّا بمعنى مادِّيٍّ، لكن لو سألني أحدهم، سأحاول تدعيم نفسي بلونٍ أو ضوءٍ أو شيءٍ ما يرتعش. لا أرى أي شيء حينها، لكن أفكِّر:

قريبًا، ستموت.

كانت الفكرة جزءًا منِّي. لم يكن هناك صوتٌ يهمس لي بهذا. لا ألوان. لا ارتعاشات. أفكِّر فحسب:

قريبًا، ستموت.

---

(1) في الفولكلور الأيسلندي، شبح يشبه شخصًا على قيد الحياة، رؤيته نذير بموت ذلك الشخص- (المترجم)

وفي أغلب الأحوال، أكون على صواب. عندما أتأمَّل فيما حدث ارتجاعيًّا، أقول لنفسي ربما كان الشخص الذي مات يحمل لونًا على جلده مَنحَني علامةً ما. أفتِّش عقلي عن تفسيرٍ منطقيٍّ- مرضٌ سمعتُ الناس من حولي يتحدثون عنه وتشرَّبتُه في عقلي لا واعيةً. لكن الألوان الصفراء لا تُقدِّم أيَّ تفسير أفضل لموت الفجأة.

عندما رأيتُ والد إلن في آخر مرَّة، أدركتُ الأمر:

قريبًا، أعتقد، ستموت.

كنا التقينا أثناء عملي على واحدة من مسرحياته، والتقينا أيضًا بأناس آخرين. لم يكن لدينا أي سبب حقًّا للتحدُّث إلى بعضنا البعض، لكننا قلنا مرحبًا لبعضنا البعض، وأحيانًا، كما في آخر مرَّة، توقَّفنا ودردشنا قليلًا.

كان ذلك في ظهيرة يوم أحد في شتاء عام 2000، النهار بارد بشدَّة، وساكِنٌ. حفنة ثلج قد تحطَّمَت تحت أقدامنا، وكنت أشعل سيجارة عندما رأيته يستدير إلى الشارع، باديَ الإرهاق. عندما أصبح أمامي، تعرَّفته وقلت مرحبًا، ثم تَردَّد قليلًا وأخيرًا توقَّف.

أتذكَّر رائحةً- حارَّة، عدوانية، متراكمة. رائحة قديمة لليالٍ طويلة، قذرة، رائحة تبغ مصدوعة بالأرواح (*brennivín*). رائحة الحديد. رائحة عذبة للفوضى، وغُرف النوم والدخان وانفراجات الأقدام والصفعات- مكتومة، مُعرَّقة، متكررة.

لديكِ سيجارة؟ سألني بخشونة، ومنحته واحدة، ثم أشعلتها له. ارتجف عند النفس الأول. ربما كان يشعر بالبرد حقًّا في قميصه ومعطفه الصوفي الرقيق. ثم فكَّرت:

قريبًا، ستموت.

دائمًا ما تكونين في المسرح، أليس كذلك؟ سألني، وقلت نعم، في الأغلب- دائمًا ما أصنع الإكسسوارات. لم أسأله عن أي شيء في المقابل، واعيةً جدًّا بغياب أي شيء قد يُقال ويُميِّز تواصُلَنا البشري معًا. استغرقنا في الصمت. كان يحمل نظرةً نائيةً على وجهه عندما قال وداعًا.

لن أراكَ مرةً أخرى أبدًا، فكَّرتُ، وبعد أسبوع سمعتُ خبر موته على الراديو. كنت أجلس على منضدة المطبخ في البيت، ألفُّ السجائر بجهاز خاص كنتُ اشتريته من كوبنهاجن. ملأتُ علبتي الفضِّيَّة التي تتَّسِع لعشر سجائر؛ وهو ما جعلَ من الأسهل عليَّ معرفة مقدار ما أُدخِّن بدلًا من لفِّ سيجارة واحدة كل مرَّة. كنتُ أرغب في الإقلاع عن التدخين.

تُوفِّي الكاتب ألفور فينسون في عمر التاسعة والخمسين. كان ألفور واحدًا من أهمِّ كُتَّاب جيله، وترك وراءه ميراثًا استثنائيًّا وغزيرًا من الأعمال. إحدى عشرة رواية، عشر مسرحيات، وخمسة كتب شعرية، إلى جانب المقالات والمجموعات القصصية. تُرجِمَت أعماله إلى لغات كثيرة، وفازَ بجائزة الأدب الأيسلندي عدَّة مرات، وكذلك جائزة المجلس الشَّمالي للأدب...

ترك ألفور وراءه زوجةً وثلاثة أطفال.

أربعة، فكَّرتُ، هَزَزتُ رأسي وارتجفت، مُتذكِّرةً زُرقةَ وجهه.

لم أكن أعرف أرملة ألفور، لوفي، جيدًا. التحقت كلتانا بنفس المدرسة الثانوية. كانت لوفي قد درست التمريض، لكن تفرَّغَت منذ

ذلك الحين للمهام المنزلية، التي تطوَّرَت لاحقًا إلى الاعتناء بأعمال زوجها المتنوِّعة. كانت وكيله الأدبي، وسكرتيرته، وحاميته المتطوِّعة. بعد موته، لم يتوقَّف عملها قطُّ، بل ازدادت نشاطها.

لم يكونا معًا في سنواته الأخيرة. لا أعرف التفاصيل بالطبع. سمعتُ أمورًا مختلفةً لكن لا أعرف أيُّها حقيقي وأيُّها أكاذيب. دائمًا ما كانت هناك قصص تدور حوله، وحول تلك الفتاة الأخرى التي قابَلها (في مدرسة الفنون بالتأكيد) وتصغره بخمسة وثلاثين عامًا، ومعًا أنجبا إلن. طفله الرابع، التي تجاهَلَت لوفي ذِكرَها في نعيه. إلن، نفس اسم الشخصية الرئيسية في روايته الأولى. تلك التي ماتت بسبب انكسار القلب أو السُّلِّ، أو شيء من هذا القبيل.

لم أكن أبدًا معجبةً كثيرًا بأعمال ألفور فينسون، بالمناسبة. أعتقد أنه مُبالَغ في تقديره، وأن قاعدة جماهيره مجرد تمنِّياتٍ ليس أكثر، لكن هذا كان رأيي الذاتي فحسب. أبدًا لم أكن مُغرمة بالدراما، ناهيك عن الرومانسيات الكوميدية أو أفلام الحركة.

قطَّعتُ الجسد إلى أجزاء، بحسب أين يُفترض أن يُنْشر إلى شظايا باستخدام منشار قديم، صَدِئ. عند العنق، والذراعين، والساقين، والركبتين. حصلتُ على بعض الطمي، ضربته على المنضدة عدة مرَّات، ثم نعَّمتُه في يدَيَّ.

بعد ذلك، جلستُ واستغرقتُ في النحت بلا تفكير، معتمدةً على جسدي لمعرفة تفاصيل القالب ضمنيًّا. تعرف الأصابع -أفضل من العقل- ملمسَ جُرحٍ على عنق مشطور بالمنشار، تعرف سماكة الجِلد، كيف ينبثق الدُّهن، أين تقع العظام وكيف تنكسر.

عندما انتهيتُ من أجزاء الطمي السبعة، قمتُ بخلطِ الجصِّ. صببتُه في الحوض الأجوف وكسوتُ الطمي بالفازلين قبل أن أضع

الجـصَّ عليـه. في اليـوم التـالي، سـأقطِّعها وأخلـط مزيـدًا مـن الجـصِّ. سـأغمْرُ الجانـب الآخـر مـن الطمـي في الجـصِّ قبـل الذهـاب إلى المـسرح لحضـور جلسـة القـراءة.

(12)

كان الجميع قد وصل باستثنائها. بدا المُخرج، هريذر، مهتاجًا ومضطربًا، الشَّعر على عنقه مُشعَّثًا، وكان مُنفعلًا تجاه كل شيء تافه. كنتُ عملتُ معه في مناسبات عديدة، وأدرك تقلُّباته هذه، وأعرف كيف أتجنَّبها. مع ذلك، بدت مُصمِّمةُ المشاهد غيرَ واعية تمامًا بالوضع، وأمطَرَته بأسئلة حول هذه التفصيلة أو تلك، حتَّى فقدَ هريذر أعصابه أخيرًا وصرخ فيها. ثم حلَّ بنا الصمت.

كان مهووسًا حقًّا بالقوة. دائمًا ما يقيس قدرة أحدهم عندما يقابله لأول مرة. إذا بدا ذلك الشخص على درجة أقل في سُلَّم القيمة والأهمية، فإنه يمنح نفسه رخصةً للنباح والزمجرة. لكن إذا افترض أن الشخص يتمتَّع بشيءٍ يحتاجه؛ فإنه يتودَّد ويسيل لعابه.

كان على استعداد لتقبيل الخاتم طوعًا تمامًا متى واتته الفرصة، لكنه يرغب مع ذلك في أن يُدعى فنَّانًا شُجاعًا وراديكاليًّا. أحيانًا ما يصعب على هؤلاء الذين يملكون كل شيء أن ينتقوا ويختاروا.

استفاد الممثلون من الصمت جيدًا، وأرادوا أن يشرعوا في مناقشة المسرحية حتى مع غياب إلن، لكنها اقتحمت الباب حينها متعثِّرةً، مرتديةً نفس الملابس بالضبط التي ارتدتها في اليوم السابق، رغم أن ألوانها كانت أكثر برودة.

صفَّق هريذر بيديه ورحَّبَ بها. جلست إلن على ذراع أحد المقاعد، قالت إنها كانت مريضة وأنها قد تضطر للانصراف مبكِّرًا اليوم أيضًا. كان أنفها مُحمرًّا، وترتدي على عينيها عدَستي نظَّارة ملتصقتين معًا في المنتصف بلصقة جروح.

ترتدين نظَّارة؟ سألتها مُصمِّمةُ المشاهد، وعبَرَت نظرةُ رعبٍ وجهَ إلن.

لا، قالت. لا أفعل في الحقيقة. ثم حشرت النَّظَّارة في حقيبة ظهرها، وأخرجت نسخة مطبوعة من المسرحية وقلمًا مقضومًا من رأسه.

حسنًا، قال المُخرج. سنبدأ من حيث توقَّفنا آخر مرَّة، في صفحة أربع عشرة.

قلَّبَ الجميع إلى الصفحة. إلن، أيضًا.

الابن:

عندما عُدتَ إلى المنزل ليلًا، تسللنا جميعًا وراء جهاز التلفاز وضحكنا في علب الصودا وتبوَّلنا على جهاز الڤيديو- كومةً مُتمعِّجة في الخلف هناك، كلُّ أطفالك الكثيرين...

إلى آخره.

فيما يقرأ الممثِّلون المسرحية وأسمعها أنا للمرَّة الأولى، أدركتُ أن النَّصَّ ليس جيدًا على الإطلاق كما يريد الناس أن يعتقدوا. كانت هناك بعض المقاطع الجميلة حقًّا، والبناء بأكمله لم يكن بشعًا، لكن حتى مع ذلك، كانت هناك عناصر من الممكن تحسينها كثيرًا، على رأسها، فكَّرتُ، أن اثنتين من الشخصيات ليستا ضروريَّتين. زائدتان. كان من الأفضل للكاتبة أن تُركِّز على العلاقة بين الأب والابن، بدلًا من الاستطراد عن العمِّ والجَدِّ، اللذَيْن لم يلعبا دورًا متميِّزًا في الحبكة.

كانت قد عقَصَت شعرها وراء أذنيها الحمراوين البرَّاقتين. لاحظتُ أنها تحمرُّ خجلًا عادةً فيهما، وليس في خدَّيْها. كان الأمر كما لو أنها تغرق أعمق وأعمق داخل نفسها بينما يقرأ الممثلون. كانت أغلقت عينيها وضمَّت شفتيها معًا. عندما أشار المُخرج إلى الممثلين بالتوقُّف عن القراءة حتى يتمكَّن من إبداء بعض الملاحظات، لم تلاحظ ذلك حتى.

هل لنا أن نقول إن هذه هي نقطة التحوُّل الأولى؟ سألهم مُتفكِّرًا، واقترحت مُصمِّمةُ المشاهد أنها جاءت قبل ذلك، في بداية الصفحة السابعة عشرة بالضبط.

سيكون من اللطيف أن نسمع رأي إلن في هذا، قال هريذر، مُحملقًا فيها.

إلن؟

هاه؟

ما إذا كانت نقطة التحوُّل الأولى قد حدثت هنا، في الصفحة العشرين. عندما دخل الابن مع أفعى البواء العاصرة؟

نقطة التَّحوُّل؟ سألَت إلن ببلادة.

نعم... هل هذه هي النقطة- الضربة الدرامية... الأولى.

ليس لديَّ أي فكرة عمَّا تتحدَّثون، قالت إلن. لم أنم طوال الليلة الفائتة.

الضَّعف. راقبتُ وجه المُخرج بتركيز. هل سيعتقد أن إلن لا تكترث به بتاتًا، أم سيدرك أنها غير مستقرَّة ولا تعرف كيف تتحدث عن الضربات الدرامية في النصوص المسرحية؟

بالطبع لا تعرف. إنها ليست سوى فتاة مراهقة.

اهتاجَ الازدراء في عقل المُخرج، اشتمَّ الوميض في عينيه، وتحوَّل إلى قناعٍ جامد.

كتبتِ المسرحية، أليس كذلك؟ قال بمودَّةٍ مُصطنعة.

لا أعرف، قالت إلن، بكلمات مختنقة. ربما لا، ربما لم أكتب شيئًا منها.

ثم خرَجَت مهتاجةً. بخرَق، اصطدمت بمقعدها ومُغلِقَةً الباب وراءها بقوة لا داعي لها.

آآخ... تأوَّه الممثِّل الأكثر سنًّا، وكراهية متناقضة تشعُّ من وجهه.

تمالكَ المُخرج نفسه.

لنستمرَّ في قراءتنا، قال، مبتسمًا بابتذال، مرتديًا نظَّارته وساعلًا بخفَّة.

تطلَّعتُ إلى خارج النافذة، ورأيتُ كيف أن نُدَف الثلج كانت تتساقط بشدَّة من السُّحب الرمادية- الترابية، ثم تذوب فور ملامستها الوحل الجليدي الرمادي- الترابي الذي يغطِّي الأرض. ساعة رملية مرتعشة، معبَّأة بالمطر المتجمِّد.

ألن تتصل بها؟ سألتُ بغتةً، مندهشةً من نفسي.

هل تتحدَّثين إليَّ؟ سألني هريذر.

كنت وقحًا. ألن تعتذر؟

رأيتُ الغضب يتصاعد داخله، لكنه تصرَّفَ كما لو أنه لم يسمعني، واستمرَّ الممثلون في القراءة:

الأب:

أرضية جميلة. هل هي أرضية جديدة؟ هل... اختلط عليَّ الأمر؟

الابن:

لا- إنها أرضية جديدة بالكامل

الأب:

هل هي شجرة الصنوبر البائسة تلك؟

الابن:

... لاا، مكسوَّة بصفائح في الحقيقة. جودة عالية جدًّا، نوع من الباركيه الصُّلب...

الأب:

فورمالدهايد. الباركيه مصنوع من فورمالدهايد السموم. اختراع سويدي.

الابن:

سُمٌّ، نعم...

الأب:

نعم، وهناك رائحة غريبة أيضًا هنا- هل الأرضية رطبة؟

الابن:

نعم، ربما تكون رطبة قليلًا.

الأب:

عَفَن؟

الابن:

لاااا. لا أعتقد ذلك.

الأب:

أمرض بشدَّة عندما أعيش في منزل يملؤه العفن.

الابن:

لا- لا.

الأب:

أوه، حسنًا جدًّا. بعض الأمراض تتسلَّل إليك، بطيئة، أكَّالة. ما هذه الضوضاء؟

الابن:

أيَّة ضوضاء؟

الأب:

تلك الضوضاء.

الابن:

بصراحة، لا أسمع شيئًا.

الأب:

وكأنها عفن يأكل الألواح.

الابن:

بالله عليك، يا أبي.

الأب:

إلى أيـن أنـت ذاهـب، بالمناسـبة- لمـاذا ترتـدي هـذه البذلـة؟ وقَصَّـة ذيـل الفـرس في لحيتـك هـذه؟ لا أفهـم لمـاذا أصُبـتَ بالصَّلـع مبكِّـرًا هكـذا؟ لا أحـد في عائلتـي أصيـبَ بالصلـع. جَـدُّك الأكـبر؟ مـات بشـعر متلبِّـد، كالأسـد- في عمـر المائـة تقريبًـا.

الابن:

لديَّ موعد غرامي.

الجدُّ:

يأمل أن يجدها هناك.

الأب:

مَن هي؟

الجدُّ:

أوه، إنهـا واحـدة مـن تلـك الأنـواع الكئيبـة. تعمـل في الاسـتقبال، أعتقـد.

الأب:

هل لديه فرصة؟

الجدُّ:

إنها هوجة العمل السنوية. الجميع لديه فرصة.

الابن:

إنها محامية. تعمل في الحسابات.

الأب:

حفلة العمل السنوية، ها؟ هل يمكنني الحضور؟

الابن:

لا أعتقد أن أحدًا سيصطحب أبويه.

الأب:

ولا حتَّى العازِبون منهم؟

الابن:

لا، الأزواج حتَّى لن يحضروا.

الأب:

أنا على يقين أنه سيكون من المناسب أن نظهر سريعًا ونختفي أنا وعمُّك كُوني.

الابن:

أنت وكُوني؟

الأب:

نعم، كُوني في طريقه إلى هنا.

الابن:

لكنني على وشك المغادرة.

الأب:

أسرع واعثُرْ على مفاتيح الربط تلك وسأكون في طريقي.

الابن:

أبي، لم تُعرْني قطُّ أيَّ مفاتيح ربط...

الأب:

هل جننتُ إذن؟

الابن:

لن يرحل أبدًا، أليس كذلك؟ وإن رحلَ، سيعود مجددًا حتمًا؟

الجدُّ:

ربما عليك أن تقتله.

الابن:

أقتله؟

الجدُّ:

نعم، أو على الأقل، سيكون هذا هو الشيء الأكثر نمطيةً في وضعك الحالي.

الابن:

نعم، لكن ألن يكون نمطيًّا بشكل زائد عن اللزوم بعض الشيء؟

الجدُّ:

ماذا إذا انطلق الجميع يفكِّرون بهذه الطريقة؟ إذن فلن يقتل أيُّ ابنٍ أباه، وتعرف بالضبط ما يعنيه هذا.

الابن:

ماذا يعني هذا؟

الجدُّ:

استَخدِمْ فحسبُ طقم مفاتيح الربط ذلك.

الابن:

إنه لم يُعرْني قطُّ أيَّ طقم مفاتيح- لا يوجد أي طقم مفاتيح هنا. دائمًا ما يتظاهر أنه يتناول طقم مفاتيح، لكن لا يوجد طقم مفاتيح. لا أعرف حتَّى ما هذا. طقم مفاتيح؟

الجدُّ:

عليك أن تستخدم خيالك.

أحيانًا، يبدو الأمر وكأنني تمكَّنتُ من إغلاق نفسي، أدرتُ نفسي كالبُرغيِّ حتى القاع، ثم انطفأت فحسب. بقعة عديمة الحياة في مكاني. لم يهتم أحد. انسلَلتُ خارجةً خفيةً وأشكُّ أن المُخرج لاحظني. أعتقد أنه في المرة القادمة التي يلقي فيها نظرةً عليَّ سيندهش عندما لا يجد أحدًا في مقعدي.

لم يَخطُر على بالي أن أعرض عليها توصيلة، لكنني أردتُ أن أمضي في إثرها. كان الشعور مشابهًا لشكوكي بشأن شبح الموت. أردتُ أن أتدخَّل، أن أمنع ما لا يمكن تجنُّبه.

لا أستسلم عادةً لهذه الرغبة المُلِحَّة. لا يمكنك تحذير الناس من موتهم. وعلى أيِّ حال، ماذا لو كنت مُخطِئة؟

لم أرَ شبح الموت في إلن، لكنني أردتُ أن أتبعها، وهذه هي الرغبة التي استسلمت لها. مَشَت طوال الطريق عائدةً إلى البيت، إلى مبنى شقق قرب البحر، دلَفَت، وأقفلت رتاج الباب ورائها. ربما تعيش هناك مع أمِّها، التي لا أستطيع تذكُّرَ اسمها بحقِّ حياتي.

أدخلتُ عنوانها على دليل الانترنت وظهَرَت لي بضعة أسماء، ليس من بينها اسم إلن- لكن اسم أمِّها فحسب. تذكَّرتُ اسم المرأة فور

أن رأيته. ليليا جوذلوجسدوتر. اسم ينشقُّ بشكلٍ ما إلى نصفين على شفتيك، ويمتلئ ما بينهما بالهواء.

في المرَّة الوحيدة التي رأيتها فيها، صعقني كم تبدو طفولية. كانت ملامح وجهها طفولية لحدٍّ أنه بمقدورها لعب دور طفلة في المسارح حتى بعد أن تتجاوز الثلاثين بكثير، وصوتها، أيضًا، كان رفيعًا وعالي الطبقة، كصوت شخصية كرتونية. يدفعك تلقائيًا لتنظر للأسفل لتتأكد إن كانت ترتدي حذاءً في قدمها اليمنى.

منظرها وهي تشبك ذراعها بذراع رجل ذي مظهر متوحِّش كان حتمًا شيئًا داعرًا بحقٍّ؛ لهذا كان الناس يتحدَّثون عن الأمر كثيرًا. تخمينات عاطفية هي ما صَنَعَ الأخبار، أسئلة لم يُجَب عنها أبدًا.

ولماذا كان ميَّالًا للدخول في علاقة مع طفلة؟

هل كان في كتبه شيءٌ يُلمِّح إلى هذا؟

إلى تلك الميول.

لكنها لم تكن طفلة. كانت امرأة في الرابعة والعشرين من عمرها على الأقل، في مدرسة الفنون، وأتذكَّر قول أحدهم حينها إنه من القسوة أن يُحكَم عليها من مظهرها. ربما كانت عبقرية، مُثقلة بالخبرات- مَن يمكنه القول؟

رفض ألفور أن يشعر بالعار، وهامَ في المدينة معها ساحبًا إيَّاه، مُثقلة بحَمْلها؛ ممَّا أثار تعاسة زوجته بشدَّة. كان شعر ليليا يصل إلى مؤخِّرتها. خطواتها تطقطق بخِفَّة الريشة، واندهاش أبدي يقبع على وجهها الطفولي. خدَّاها ورديَّان.

بغتةً تمامًا، سمعتُ ضربةً على غطاء المحرِّك. كانت إلين. خرَجَت بينما أستخدم الإنترنت للتجسُّس عليها.

أنزلتُ زجاج النافذة. نظَرَت إليَّ مُترقِّبة.

هل تنوين البقاء هنا طويلًا؟ سألتني أخيرًا، وجفلتُ.

آسفة، كنتُ قلقلةٍ بشأنك ومضيتُ في إثرك فحسب، أعرف أنه يبدو جنونًا، لكنني كنتُ حسنة النِّيَّة...

نظَرَت إليَّ بشكٍّ. بَدَت أكثر شبهًا بأبيها من أمِّها.

لماذا أنتِ قلقة؟

بسبب مغادرتِك العاصفة... لا أعرف.

حسنًا، قالت مُنزعجةً وتردَّدَت. حسنًا. انصرفي من هنا حالًا. وتوقَّفي عن التجسُّس عليَّ. إنه آخر شيء يَنقُصني في العالم، سُحاقيَّةً عجوزًا مهووسةً بي.

شغَّلتُ السيارة وانزلقتُ خارجة من باحة الانتظار، قدتُ مباشرةً إلى البيت في الضوء المعتم، مرهقةً، بوجهٍ يُكلِّله العار، وراغبة في محو الشيء الأخير الذي قالته.

كان هذا غير ضروري بالمرَّة.

(13)

شيءٌ ما كان يومض في ظلام غرفة المعيشة. أضأتُ المصابيح ولمحتُ في منتصف الأرضية -حيث كانت الصناديق- شيئًا ما صغيرًا جدًّا وزجاجيًّا يومض. اقتربتُ بحذر، وشعرت بطرقات قلبي في صدري.

هل هذا ما أظنُّ أنه هو؟

لا.

لا يمكن.

استولى عليَّ البرد في لحظة. عندما مددتُ يدي، كانت راحتَيَّ مُتعرِّقتَيْن، وأصابعي ترتعش لحدٍّ أنني بالكاد تمكَّنتُ من ملامسة الحصان. الحصان الزجاجي. لم أستطع التقاط أنفاسي فيما أقبض عليه في راحتي المُتعرِّقة وأتمايل عبر غرفة المعيشة. مرتديةً معطفي ما زلت.

لا بـدَّ أن أخـرج. لا بُـدَّ أن يرحـل الحصـان. اسـتدرتُ عـلى عقبَـيَّ وانسـللتُ خارجـةً إلى السـيارة فيـما الحصـان يخشـخش في جيبـي.

بـلا تفكـير، قـدتُ غربًـا في اتجـاه البحـر وتسـاءلتُ مـا إذا كانـت هنـاك طريقـة فعالـة لتدمـير الحصـان نهائيًّـا. لا شيء يبـدو مُرضِيًـا بالكامـل. رميـه في المرحـاض قـد يعنـي انحشـاره في موضـع مـا في الأنابيـب، وهـو احتـمال مُرعـب. تطويحـه في البحـر قـد يعنـي تشـابكه مـع أعشـاب البحـر ثـم خروجـه إلى الشـاطئ واسـتقراره هنـاك.

تثبيتـه بلـوح صخـري وسـحقه بحجَـر حتَّـى لا يتبقَّـى منـه سـوى فتـات مـن الزجـاج. ثـم طحـن الفُتـات حتـى يتحـول إلى مسـحوق ناعـم، ثـم نفخـه إلى البحـر. هـل سـيصير البحـر حينهـا حصانًـا؟

لم أفهـم أيضًـا كيـف سـقطَ الحصـان مـن أحـد الصناديـق واسـتقرَّ هنـاك عـلى الأرضيـة طـوال تلـك الفـترة. دون أن ألاحظـه. بـدا الأمـر شـنيعًا جـدًّا عـلى أن يكـون مجـرَّد صدفـة. افـترش الضـوء القـادم مـن السـيارات العابـرة وجهـي في الظـلام، ولوهلـة سـقطتُ فريسـةً للرعـب.

لكـن هـل أجـرؤ عـلى كـسر الحصـان؟ أدرك جيـدًا أنـه لا يوجـد شيء لأخافـه. بالطبـع لـن يحـدث شيء إذا انكـسر الزجـاج. ومـع ذلـك أشـكُّ أن المـادة الفيزيائيـة ذاتهـا تتمتَّـع بمـا يشـبه الذاكـرة. أعـرف بالطبـع أن الزجـاج مجـرَّد زجـاج. أن الـشيء مجـرَّد شيء. لكننـي عملـتُ عـلى أشـياء. أجـزاء جسـدية مـن صمـغ الراتنـج، قـرون مـن المطـاط، وأقنعـة بمقدورهـا الـكلام. مـواد تنسـاب مـن يـدَيَّ، تتَّخِـذ شـكلًا ثابتًـا، ثـم تتداعـى مجـدَّدًا.

بالطبـع أدرك أن الزجـاج ليـس شـيئًا حيًّـا. بالطبـع كان الزجـاج شـيئًا حيًّـا. قـد يصـير البحـر زجاجًـا. ذيـل حصـان بحجـم نُطفـة حـوت يصعـد مـن الأعـماق، متماوجًـا وسـط عاصفـة مُشـظِّيةٍ، ثـم مختفيًـا تحت السـطح

مجـدَّدًا. ربمـا مـن الأفضـل الحفـاظ عـلى الحصـان في حالتـه الأصليـة، إخفـاءه، نسـيانه.

هـل يظهـر ثانيـةً في مـكان آخـر؟ بغتـةً؟ كتلـةً متوهِّجـةً؟ أوقفـتُ سـيارتي بجـوار منـارة جروتًـا وأشـعلت سـيجارة، سـيجارتي الرابعـة ذلـك النهـار، وشـعرتُ بالحصـان في جيبـي دون أن ألمسـه- كان يشـعُّ حـرارةً.

لمـاذا أربـط دائمًـا بـين هـذا المـكان والحصـان؟ هـل أسـتطيع الصعـود إلى أعـلى جروتًـا؟ عندمـا انتهيـتُ مـن السـيجارة، تابعـتُ القيـادة. واتتنـي فكـرة طحـن الحصـان إلى مسـحوق ووضعـه في مظـروف، ثـم إرسـاله إلى مـكانٍ مـا.

إرساله إليه.

كـدتُ أفقـد الوعـي بسـبب الفكـرة. بالطبـع لـن أفعـل شـيئًا كهـذا. إذا ذهبـتُ بـه إلى كڤالفيـورذر، حينهـا هـل سـأرى الحصـان في كل مـرَّة أتوقـف عنـد كڤالفيـورذر؟ تجسـيمه الخافـت مُتمظهـرًا في خلفيـة عقـلي؟ إذا ذهبـتُ بـه إلى راوذافـتن، هـل سـيكون الأمـر دومًـا وكأننـي أنظـر عـبر زجـاج متجمِّـد متـى ذُكـرَت راوذافـتن؟[1]

حَـشْرُه في شـقٍّ في الجبـال. وضعـه في سـلال إعـادة تدويـر الزجـاج. إلقائـه في القمامـة ببسـاطة. العـالم بأكملـه سـيكون موضـع شـكٍّ.

في لحظـات كهـذا أشـعر بالحاجـة إلى صديـق. أحـدٌ مـا يمكننـي الاتصـال بـه وطلـب مشـورته. بمجـرَّد أن ظهـرت الفكـرة في رأسي مُدوِّيـةً، شـعرتُ بيـأسٍ مصحوبًـا بومضـات مـن هاتفـي. اعتقـدتُ أنـه أمـر يتَّصِـل بالعمـل، لكنهـا كانـت إلـن.

(1) نفق «كڤالفيورذر» وبحيرة «راوذافتن» في أيسلندا- (المترجم)

لم أقصد أن أكون وضيعة.

حملقتُ في الرسالة.

لم أقصد أن أكون وضيعة.

رنَّ الهاتف ثانيةً.

أو دنيئة.

(14)

ذات صباح، بعد أن خطَّطتُ للتوقُّف في المنزل والعبث في شيءٍ ما في قائمة مهامي، أدركتُ أن كل شيء أُنجز بالفعل. كنتُ قد أعدتُ بناء المنزل بأكمله حرفيًّا بمفردي، وما زلت أتذكَّر ذلك الشعور. الزهو. كان منزلي. بصمات أصابعي في كل مكان- داخل الأنابيب، في البالوعات، على ظَهْر الألواح الخشبية.

أثناء إقامتي في كوبنهاجن، غالبًا ما كنتُ أذهب إلى "فيلم هوسيت" لمشاهدة الأفلام الطليعية. واحد من المخرجين المفضَّلين لي كان چون ووترز. أتذكَّر مشهدًا من أفلامه الأولى، فيلم صنعه بلا تمويل يُذكر تقريبًا. في المشهد، يقتحم شخصان منزلًا من الطبقة المتوسطة ويلعقان كل شيء. يلعقان الكراسي، المنضدة، الأرضية، الدَّرَج، الدرابزين... يلعقان الأواني الخزفية، الوسائد، التُّحَف الثمينة القديمة- كل شيء.

كان بمقدوري فهم ذلك الشعور. فهمتُ أهمية أن يتوحَّد المرء مع المادة الفيزيائية، مع المادة التي تتكوَّن منها الأشياء، أن يكون جزءًا منها. أن يكون شيئًا. طبقة من لُعاب. بصمات أصابع مُزيَّتة. خراء في الأنابيب. فهمت كيف لبصمات شخص آخر أن تقبض على وجودك. لا يوجد شيء خَيِّر أو ساحر بشكل خاص في هذا، لكنه إنسانيٌّ جدًّا.

استحوذتُ على قطعة الأرض هذه. كانت مِلكي وازددتُ ضخامةً، عليها، امتلأتُ بكل تلك الجسيمات التي تُدوِّم وتستقرُّ وتكتسح وتطمر نفسها دومًا في الأشياء. أصبحتُ مادةً يمكنها التحرُّك، وبالتالي العيش.

كنت أحصل باستمرار على مزيد من المشاريع. صارَ اسمي واحدًا من تلك الأسماء التي يذكرها الناس تلقائيًّا عندما يحتاجون إلى شخص بمقدوره بناء يد مبتورة يمكنها الاختلاج.

لم يستغرق الأمرُ منِّي طويلًا لأُسدِّد قروضي وأفتح حساب ادِّخار، أستمتع بمراقبته ينمو. كنت أرغب في السفر في أرجاء آسيا. في كوبنهاجن، كنتُ قابَلتُ امرأةً من بورما. هاجَرَت من هناك مع أبويها في عام 1960.

كانت تكبرني قليلًا وتدرس صناعة الأفلام. أُخذتُ بها تمامًا وساعدتها في مسائل صغيرة في مشروعها النهائي- فيلم روائي طويل الشخصيات الرئيسية فيها نباتات، بعضها وحشية عجيبة، وبعضها ليست كذلك.

لم نكن أصدقاء حقًّا، لكن في إحدى الأمسيات بعد انتهاء التصوير، ذهبنا مع آخرين إلى بار "بو- باي"، وطلبنا بيضًا مسلوقًا، وجلسنا ندخِّن بلا انقطاع، ونشرب ونثرثر، وأخبرتنا هي، رغم أنا كانت انطوائيَّةً للغاية عادةً، عن الوضع في بورما.

في خريف عام 1987، أخذتُ إجازة من العمل لستة أشهر وسَطَوتُ على حساب الادخار. طِرتُ إلى بانكوك ومن هناك إلى بورما، التي كانت ما تزال تُدعى بورما حينها، ذلك أنهم غيَّروا اسمها إلى ميانمار بعدها بسنتين.

في يومي الأول في بانكوك، تقدَّمتُ بطلب التأشيرة، جلستُ في مؤخرة عربة مربوطة بدراجة نارية تُسمَّى توك- توك، كانت تنطلق بين السيارات. لا أتذكَّر أي شيء من ذلك جيدًا، سوى أنني كنت قَلِقة ومرتعبة.

في المكتب، ملأتُ الاستمارات واكتشفت أنه غير مسموح لي للبقاء في بورما لأكثر من أسبوع، وهو ما أصابني بخيبة أمل. ما أعرفه عن البلد كان محدودًا -لا شيء سوى ما سمعتُ عنه أو قرأته في المجلات والكتب- وأدركتُ أنه تحت كل هذا، كانت تختفي حقيقة أكثر تعقيدًا، حقيقة لم أتمكَّن من فهمها قطُّ.

كنتُ أعرف أن البلد يقع تحت سيطرة دكتاتورية عسكرية منذ عام 1962. وأن البلد قد انقطعَ من بعدها عن العالم الخارجي.

كنت أعرف أن البلد معزول، وأن الشعب معزول داخله.

في عقلي، كانت بورما بذخًا وافرًا: الجبال الخضراء القاتمة، حقول الأرز في الضباب، أشكال جاموس الماء، المعابد الذهبية على شكل البيضة التي تبدو وكأنها استُخرِجَت من الأرض بِيَدٍ عملاقة. النحَّاتين الدينيين العمالقة المُتعثِّرين في الغابات. الرهبان المُتَّشحين بالأحمر الخارجين من غروب الشمس في طابور واحد.

لـولا الأشـياء التـي صُنِعَـتُ منهـا، لم أكـن لأتوقَّـف عـن السـفر أبـدًا. سـيصير العالَـم قالبًـا وأُصَـبُّ داخلـه، سـأصير حبَّـةَ رمـال في قوقعـة، لؤلـؤة في جديلـة يحملهـا بيَّـاع الشـاطئ، لتوضـع حـول عنـق امـرأة، تـضرب بخفَّـةٍ عـلى جلدهـا وتمتـدُّ باضطـراب عـلى ترقوتهـا عندمـا تتحـرَّك.

في يومـي الأول، قابلـتُ المُرشـد "خـين" خـارج فندقـي في يانجـون. كنَّـا نسـافر بالبـاص أو أجلـس عـلى مؤخـرة درَّاجتـه الناريـة. أراني صوامـع الرهبـان في أعـماق الغابـة، وقدَّمنـي إلى راهـب كان يسـير بعصـا ذهبيـة، مُعالـج بالأعشـاب، بصحبـة أفعـى كانـت -بحسـب المعتَقَـد الشـعبي- ابنـةَ راهـب مـات قبـل مائـة عـام.

كانـت الأفعـى تسـتقرُّ بـلا حـراك عـلى مذبـحٍ في غرفـة خاصـة، عـلى جبـل مـن العمـلات وأوراق البنكنـوت، هائلـة وعتيقـة. كانـت تعتنـي بهـا فتـاة صغـيرة خرسـاء، خدَّاهـا وجبينهـا مطليَّـة بالأبيـض. كانـت الدمـوع تنسـاب مـن عينيهـا، أرتنـي صـور وتماثيـل صغـيرة لابنـة الرجـل المقـدَّس التـي ترقـد هنـا، في صـورة أفعـى.

أخـبرني "خـين" أن هـذه الفتـاة ثرثَـرَت ذات يـومٍ بشـأن شيء مـا رأتـه؛ ولهـذا فقَـدَت لسـانها؛ ولهـذا كانـت تبـكي بهـذا الشـكل.

عندمـا يتحـدث، كان حريصًـا عـلى خفـض صوتـه، والانحنـاء تجاهـي كـما لمـا لـو كان لربـط حـذاءه- ثـم يهمـس في أذني.

كان أحدهـم يتبعنـا. يقتفـي أثـر كل خطـوة نأخذهـا ويُحـاكي كل حركـة يبديهـا المُرشـد. أحيانًـا مـا كان يجلـس عـلى مسـافةٍ قريبـة مِنَّـا وفي إحـدى المـرَّات، عندمـا بـدا أنـه تائـه في أفـكاره، انتهـز "خـين" الفرصـة.

عـلى الفـور، طلـبَ منِّـي أن أُنصـت بانتبـاه. اقـترب عينـاه الداكنتـان مـن عينَـيَّ، وتحـدَّث بسرعـة:

إنهـم يأتـون إلى القـرى الصغـيرة، النائيـة، قـال لي، ويملـؤون الشـاحنات بالنـاس...

بـأسرع مـا يمكنـه، رفـعَ قميصـه وأراني ندوبًـا. الدليـل، همـسَ مُتجهِّـمًا. كانـت النـدوب البيضـاء تكـسر وتـيرة وشـوم الخيـزران الداكنـة التـي تغطِّـي صـدره ومعدتـه.

لم يكـن الرجـل الـذي يتبعنـا شـبحًا. كان نحيـلًا وذا بنيـة ضعيفـة، مثـل "خـين"، ويرتـدي قميصًـا أبيـضَ قصـير الأكـمام، ضيِّقًـا ومُـزرَّرًا عنـد العنـق، وجونلـة طويلـة، بُنِّيَّـة بلـون الطمـي، تلتـفُّ حـول خـصره، يمضـغ مكسرات التامـول ويبصـق مـن وقـت لآخـر بقايـا مُضَـغ حمـراء كالـدم.

(15)

ظهرَ نجم الفيلم بغتةً في غرفة معيشتي. كنتُ مستغرقةً تمامًا في الطمي لحدٍّ نسياني أنني كنتُ في انتظاره. بالتالي لا بُدَّ أنني تركت الباب مفتوحًا، وعندما قال مرحبًا، جفلتُ بشدَّة.

اعتذرَ ثم صافح يدي وقدَّمَ نفسه. بيتويل بينوني. لم أكن قابلته قطُّ شخصيًّا. كان أكبر حجمًا ممَّا توقَّعتُ، طوله متران تقريبًا بالتأكيد، ورأسه عريضٌ للغاية، وهو شيء عجيب، بالنظر إلى وجهه الذي يشبه الدُّمية. شيءٌ في أبعادِه جعله يبدو أصغر في الصور، أصغر وأكثر رقَّةً. أمسَكتُ بيده في الهواء وتفحَّصتها- الشَّعرُ الذي ينمو على رسغه وظَهْر يديه كان يصل إلى أصابعه.

هل ستكون مُشعِرًا هكذا في الفيلم؟ سألته دون تقديم نفسي بدوري، وضحك، وأجابني بقدر ما يعلم.

إنـه أمـرٌ مهـمٌّ، أصرَرتُ وقُلـتُ إنـه لا يمكنـه حلـق شَـعره في اللحظـة الأخـيرة.

جلبـتُ بضعـة لفائـف مـن شـاش الجـصِّ وحوضًـا فيـه مـاءٌ فاتـر، ثـم أشرتُ لـه بالجلـوس وانتـزاع حذائـه وجوربـه مـن قدمـه اليـسرى. أغرقـتُ يـده اليمنـى بالفازلـين، ثـم رطَّبـتُ الشـاش ولففتـه حـول رسـغه. سرعـان مـا اختفـت يـده ثـم أخرجـتُ كتلـة مـن الفازلـين وأمسـكت بإصبـع قدمـه الكبـير. كان مُشـعِرًا أيضًـا.

إيبـي، الآن تدغدغينـني، قـال بابتسـامة، وفكَّـرتُ كيـف يكـون الأمـر حتـمًا لـو كنـتُ هـو. الأكـثر وسـامةً، الأكـثر موهبـةً، الأكـثر طلبًـا، الأكـثر أهميـةً، والأكـثر حبًّـا مـن جانـب الآخريـن. تقابلتـا أعيننـا لثانيـة، لكنـه أشـاح بنظـره عـلى الفـور. تخـوَّفَ بـلا شـكٍّ أننـي سـأقع في حبـه. يضطـرُّ دائمًـا بـلا شـك أن يكـون حَـذِرًا. دائمًـا عليـه أن يكـون حـذرًا مـع قلـوب الآخريـن. تخيَّـل أن يكـون في حوزتـك هـذا النـوع مـن الجـمال المدُهـش، هـذا النـوع مـن الجاذبيـة الجنسـية المُضنيـة؟

هـل هـذه أول مـرَّة تلعـب فيهـا دور الرجـل الشريـر؟ سـألته بـلا مبـالاة. ثـم تذكَّـرتُ أنـه لعـب دور رجـل شريـر في فيلـم حقَّـقَ نجاحًـا كبـيرًا مؤخَّـرًا. قاتـل مُتسلسـل، حسـبما أتذكَّـر. لكنـه لم يكـن مغـرورًا عـلى الإطـلاق، وحـكى كل شيء عـن الفيلـم الشـهير كـما لـو كان مـن الطبيعـي أننـي لم أسـمع بـه قـطُّ.

ثـم تحدَّثنـا عـن فيلـم الجريمـة الشَّـمالي هـذا، وكيـف أنـه يخـشى عـلى الأخـص مشـهدًا تنطلـق فيـه شـخصيته للسـباحة في البحـر في الشـتاء القـارس. قـال إنـه جبـان بحـقٍّ عندمـا يتعلَّـق الأمـر بالـبرد، وأنـه قـد بـدأ بالفعـل في إعـداد نفسـه للـدور، لكـن بشـكل سـيِّئ- لم يتمكَّـن مـن الابتعـاد أكـثر مـن ركبتيـه في المـاء، حتـى مـع الطقـس المعتـدل الـذي سـادَ مؤخـرًا.

أنت مجرَّدُ ساحرٍ على الدوام، أليس كذلك؟ قلتُ بلا تفكير. لم أقصد قول هذا حقًّا. تردَّدَت الجملة بشكل حارق في الهواء بينما أحرِّك مُجفِّف الشَّعر على الجصِّ.

فور أن يرحل، سأقطع إبهامه وأضع إصبع قدمه الكبير مكانه. ثم سأصنع قالبًا مسبوكًا من اليد، وأخلط السيليكون، ثم أصنع قالبًا مُفرَّغًا من اليد. إنه عمل مرْهق لحدٍّ أنني استغرقت فيه تمامًا. السيليكون عديم الرائحة، لكن حتى مع هذا، لا يمكن إتمام الطلاء في نفس الغرفة التي صنعت فيها قالب السيلكون؛ لأن الطلاء لن يجفَّ حينها. عندما يتعلَّق الأمر بهذه المادة، فإن الرائحة لا تحكي القصَّة كلها.

سينتهي بي الأمر إلى ضرورة استخدام قليلٍ من صابون الصحون لإخراج اليد من القالب المُفرَّغ، ووضع خمس طبقات رقيقة، وسيكون الوقت قد تأخَّرَ كثيرًا عندما أخلد إلى النوم. سيثقل رأسي، وسينبض جبيني بقوة. سأندم على عدم النزول إلى القبو. كان نزولي إلى القبو يزداد ندرةً أكثر وأكثر هذه الأيام، وكذلك فتحي للنوافذ. شكل من التبلُّد وليس مجرَّدَ نزوة لتدمير الذات.

أليس الحُنوُّ شكلًا من أشكال النزوات؟

عندما يصبح قالب السيليكون المُفرَّغ جاهزًا، سأصبُّ صابون الصحون داخله ثم أهزُّ اليد حتى ينتشر في كل مكان. ثم أثقب ثقوب صغيرة جدًّا في موضع أطراف الأصابع حتى لا تتكوَّن فقاعات هوائية. سأصنع قشرة عازلة من الجصِّ ثم أصبُّ السيليكون في القالب المُفرَّغ، في اليد.

عندما تجفُّ اليد ويكون بمقدوري انتزاعها من قالبها كالقُفَّاز، سأخلط صبغةً بالسيليكون السائل الخفيف لاستخدامها في طلاء اليد. سأنشرُ عبر عين إبرة خِياطَة رفيعة بشكل لا يُصدَّق، صانعةً تفرُّعات، ثم أغرز طرف الإبرة في قطعة خشب منمنمة لاستخدامها كمقبض، غارزةً الشعيرات الداكنة وصولًا إلى قبضة يد بيتويل بينوني.

سأُدخِل أنابيب ضيِّقة في المقبض، حتَّى تصل إلى أطراف الأصابع، ثم أضخُّ عبرها سائل أحمر كالدَّم سيتراكم في أطراف الأصابع. سنستخدم هذه الأنابيب في موقع التصوير- نَصِلُها بأخرى، أطول، وأقف أنا خارج الشاشة، وعندما أتلقَّى الإشارة، سأضخُّ عبرها دماء تتناثر من الرسغ عندما تُقطَع اليد.

كل شيء حسب النَّصِّ.

على وجه الممثل الرئيسي، ستعلو نظرةٌ متجهِّمة عندما يراني ويسمع كيف أحكي أنني أسخر منه ومن تضخيمه لذاته. هكذا أنظر إلى الأمر عندما يتشارك الناس قصصًا ساحرةً حول أنفسهم معي. كثيرًا من استمناء (الأنا) اللعينة، وهو شيء لا أريد أن أعرف بشأنه. مجرد الفكرة تثير غضبي واهتياجي.

كان يتوق إلى جرِّي معه إلى حياته اليومية ويحكي لي أخباره المملَّة.

لا يقاس.

لا يهمُّ.

لا يطاق.

تصرَّف كما لو أنه لم يسمع ما قلته. في المرَّة التالية التي تلاقت فيها أعيننا، كان هناك دفء واضح في تعبيراته -بل خُبث ربما- ولم أعُد متأكِّدة ماذا قلتُ بصوتٍ عالٍ، وبماذا فكَّرتُ فحسب.

(16)

في نهايـة الأسـبوع، طـرتُ عائـدة إلى تايلانـد مـن بورمـا. حجـزتُ في فنـدق رخيـص في بانكـوك وأفرغـتُ حقائبـي. كانـت الغرفـة تغـصُّ بالبعـوض، شـغَّلتُ المروحـة، سَـدَدتُ البـاب بمنشـفة مُبتلَّـة، وانطلقـتُ مهتاجـةً بأخـرى أضرب وأضرب بهـا في الهـواء حتـى تَغطَّـى كلُّ شيء بلُطَـخ الدمـاء.

كان الليـل قـد حـلَّ. الأرصفـة مزدحمـة بأنـاسٍ يبيعـون الطعـام والحُـلِيِّ الرخيصـة. لم يكـن بمقـدوري التحـرُّك إنشًـا واحـدًا دون ملامسـة شيء أو إنسـان. إذا أردتُ عبـور الشـارع، فالطريقـة الوحيـدة لأضمـن أن يتوقَّـف السـائقون كانـت أن أنظـر إلى أعينهـم مبـاشرةً.

أذهلنـي تخطيـط المدينـة. كانـت الشـوارع طويلـة وعريضـة، ومـن النـادر أن أجـد مهربًـا إلَّا بالقفـز إلى ظهـر درَّاجـة ناريـة أو إلى بـاص. كانـت أكشـاك الطعـام متناثـرة عـلى الأرصفـة أو في أماكـن انتظـار السـيارات أو

في منتصف الشوارع. أحيانًا ما كانت توضع مقاعد بلاستيكية تحت سقيفة. في ذاكرتي، كانت المقاعد البلاستيكية بحجم الأطفال، وركبتاي تنثنيان بزاوية غير طبيعية، الأرض قريبة؛ رائحة المجارير ترتدُّ إليَّ.

اختلط كل شيء معًا وغامَ بفعل الحرارة. الاتصال بكل هؤلاء الناس المجهولين. الجراثيم هي الكلمة التي ظهرت في عقلي. بكتيريا وفيروسات وجراثيم تطير بين الغُدَد المفتوحة وتتداخل وتمتزج بالعرق والدَّمِ والدموع والصديد والخراء. شعرتُ بالغثيان واشتقتُ كثيرًا لنسيم بارد. للانغلاق. للموت...

قضيتُ أيَّامًا كثيرةً دون التحدُّث لإنسان واحد. أستيقظ، أتناول إفطاري في الفندق- حفنة من الأرز والخُضار المقلي. بخلافي، كان هناك بضعة نزلاء متأنِّقين توقَّفوا هناك لفترة وجيزة. عادةً، رجال بوهج ناءٍ في أعينهم، في طريقهم إلى باتايا.

كان بعض الرجال يتظاهرون بعدم رؤيتي، وآخرون يرغبون في الدردشة. عندما أفكِّر في الأمر الآن، أتخيَّل أنني صرتُ في عقولهم وكأنني وكيلةٌ عن كل النساء الغربيَّات. أرادوا أن يفهموهن، وأحيانًا ما كانوا يقدِّمون قضاياهم إليَّ كما لو أنه يقفون أمام قاضٍ. كقاعدة، تحدَّثوا عن عشيقاتهم السابقات. عن طمعهن، جشعهن، برودتهن، إلحاحهن، وحكوا لي عن وحدتهم وخوفهم من انتفاء المعنى في كل شيء، عن الموت.

أرادوا فحسب أن يشعروا أنهم أحياء، والنساء التايلنديَّات لم يَكُنَّ مثل الغربيَّات، أجمعوا على ذلك. تلك التايلنديَّات لا يُرِدنَ أيَّ شيء في المقابل، باستثناء -بالطبع- مكافأة صغيرة ما، شيء غير كبير بحسب مقاييس الرجال، لكن بعد ذلك، لا يطالبن دومًا بأشياء لا يضطرُّ

الرجـال لتقديمهـا. الإخـلاص والحميميـة والأمـان والوعـود بشـأن هـذا الأمـر أو ذاك.

تلـك التايلنديَّـات -قـال لي واحـد مـن هؤلاء الرجـال- يدركـنَ أن الجنس هـو الجنـس. الجنـس كافٍ في حـدِّ ذاتـه. حـدَثٌ قائـم بذاتـه. ثـم يحـدث مـرةً أخـرى. مـع رجـل آخـر. طالمـا يُدفـع لهـنَّ. إلى ذلـك فهـنَّ مِطواعـات، خاضعـات. ليـس مثـل العشـيقة السـابقة. الدافـع الجنـسي ليـس سـوى غريـزة بدائيـة، كالأكل والنـوم. إنـه جـزء طبيعـي مـن الحيـاة، ولمـاذا لا أسـمح لنفسـي بإشـباع حاجـة طبيعيـة؟ الجنـس جـزء طبيعـي تمامًـا مـن الحيـاة- أقـوم بتسـليم البريـد، سـلَّمتُ البريـد إلى مليـون منـزل، لمليـون مـرَّة جَـرَت عينايَ عـلى العنـوان في الخطابـات التـي سُـلِّمَت بفضـل نعمـة العضـلات في ذراعَـيَّ، ودائمًـا مـا أنـام وحيـدًا ومُتصلِّبًـا وبـاردًا وأبـكي في نومـي لأنـه لا يُسـمح لي بالبـكاء في يقظتـي. حاجـة طبيعيـة أخـرى لا يُسـمح لي بإشـباعها. وامتـلأتُ بالسـوائل، ووصلـتُ هنـا إلى آسـيا كيسًـا متصلِّبًـا منتفخًـا بالمَنـيِّ والدمـوع، كلاهـما محظـورٌ عليـه التدفُّـق مـن غُـدَدي الإنسـانية الطبيعيـة تمامًـا. كـما لـو كنـتُ وحشًـا لأننـي أتـوق للرغبـات الجنسـية، أو عاهـرةً صغـيرةً لأننـي أرغـب في البـكاء، وكل مـا أردتـه فحسـب أن أكـون رجـلًا يُنـزِلُ مَنِيَّـهِ ويبـكي، لكننـي تحوَّلـتُ إلى كيـس، كيـس عجـوز اضطـر للرحيـل إلى تايلانـد ليَسـكُبَ مـا في داخلـه...

حـكى لي، وأنصـتُّ إليـه وفكَّـرتُ في الغرائـز البدائيـة والحاجـات الطبيعيـة.

الشُّرب.

الأكل.

النوم.

الموت.

بعد تلك المحادثة، مرَّت أيام كثيرة فالقة للأذن دون أفتح فمي لأي شيء سوى حشر حبَّات الأرز اللَّزِجة فيه. لا أعرف لماذا بقيتُ في بانكوك طويلًا هكذا، لماذا لم أنطلق لصعود الجبل أو إلى الشاطئ. لم أزر حتَّى أي معالم سياحية- لا معابد ذهبية أو صوامع تغصُّ بالرُّهبان والطواويس.

ربما كنتُ مُنهكة تمامًا من رحلتي إلى بورما، لحدٍّ أن حوائط الفندق ذات المقابس المتساقطة والبعوض الميِّت كانت كافية لي. في الأمسيات، أحيانًا ما كنت أذهب إلى النوادي الليلية، وأطلب ريد بول أو كريتنج دايج، وهي تسميتها في تايلاند، وأجلس على البار. كانوا يحتشدون معًا، الرجال، بينما تجلس الحوريات الصغيرات على حجورهم لإدخالهم في مزاج رائق فيما يتكرَّعون ويتضاحكون ويصيحون وينسون وحدتهم ويدهسون خوفهم من الموت.

ماذا رأوا عندما نظروا إليَّ؟ لا شيء على الإطلاق، أتصوَّر. لا فائدة تُرجى منِّي. لن أُشبِع أي حاجةٍ طبيعية. ماذا رأت فتياتهم؟ لا امرأةً ولا رجلًا، لا إجابةً ولا نقيصةً. في نادٍ، في الليل، بلا رغبة في الجنس، أو المال، أو الكحول. بلا حاجة إلى الرقص، أو الأغاني، أو الموسيقى. ربما رأوني وتساءلوا عن انعدام الغاية داخلي.

لكن ربما هذا بالضبط ما أحتاج إليه. ربما كان هذا الانعدام هو بالضبط السبب الذي تلكَّأتُ من أجله في بانكوك. الجنس، الكحول، الضحك والرقص والأغاني. الضحك، أولًا وقبل كل شيء. وإلَّا لماذا أقمتُ في ذلك الحيِّ، وإلَّا لماذا سعيتُ إلى نوادي ذلك الحيِّ. بالطبع كنتُ بحاجة إلى الأغاني والرقص. الضحك. ثم قابلتُ مايك.

كان واحدًا ممَّن جاؤوا إلى الفندق عَرَضًا، لكنه بقيَ لفترة أطول قليلًا من البقية. بدا أنه في الستين تقريبًا. في البداية، لم أتبيَّن أيَّ فَرقٍ

بينه وبين الآخرين. نفس سروال الكاكي القصير، نفس قميص البولو، نفس الجوارب في نفس الصَّندل، نفس السيقان البيضاء كاللِّفت، المقطوعة بالأزرق.

جلس بجواري ذات صباح، وبدأنا في الدردشة. قال لي إنه اشترى منزلًا صغيرًا في «كو ساموي» دون أن يراه. كانت هذه هي المرَّة الأولى له في تايلاند، لكنه قرَّر ألَّا يرحل أبدًا.

لماذا تايلاند؟ سألته، وهزَّ كتفيه بلا مبالاة، وقال إنه لم يجد شيئًا أكثر أصالةً قطُّ.

الطعام شهيٌّ، قال. ثم سألني إن كنت قد رأيتُ معبد «وات فرا كايو» واقترح أن نذهب إليه معًا في اليوم التالي. اندهشتُ. هززتُ رأسي، لكن شيئًا ما داخلي استيقظ من سُباته، شيئًا كنتُ قمعته، بينما يُفترض أن يركل ويتلوَّى، وقبلتُ الدَّعوى.

كانت أكشاك الشارع على الممشى الصاعد إلى المعبد مُخصَّصة لبيع مسابيح الصلاة ومدالي بلاستيكية بصورٍ لرهبان بوذيين. أكوام وجبال من الحُليِّ المقدسة. التعبيرات على وجوه البائعين وقورة ومختالة، فكَّرتُ -ناخرةً باستهزاء- فيما يشتري مايك بعض مسابيح الصلاة.

هل أنت دِينيٌّ؟ سألته، وأجابني أنه ينوي أن يكون كذلك في حياته الجديدة.

بهذه البساطة، قلتُ، وقال لي إنه دائمًا ما كان يتوق إلى الإيمان، لكنه لا يسمح لنفسه.

من بين كل الأشياء التي ينبغي للمرء أن يحرم نفسه منها، قلتُ، واستغرقَ في الصمت. ربما جرحتُ مشاعره. ربما جرحتُ مشاعره

بضعة مرَّات، لكنني دائمًا ما أفعل ذلك عندما يعجبني أحدهم كثيرًا. أرغب في أن أُظهِر له كم أنا ذكية، لكنني حينها أتقوَّل بشيءٍ أخرق.

زُرنا تمثال بوذا الزُّمرديِّ، وحينها بدأ المطر يتساقط بغزارة. هرعنا تحت المطر المُنهمر حتى صادفنا مطعمًا ودلفنا إليه. ضحكتُ. ليس أن الموقف كان طريفًا، لكنني ضحكتُ وراودني شعور اللا واقع ذلك. رأيتُنا من بعيد. ملابسنا الكاكي المبتلة، صنادلنا، شَعرَنا. كأيِّ زوجٍ آخر في منتصف عمريهما يزوران تمثال بوذا الزُّمرديِّ ثم يبدأ المطر في الانصباب، أوه، يا لخيبة الأمل.

ربما هذا ما أثار الفكرة. أقول فكرة، بينما أقصد الافتتان. كان حينها ربما عندما تجسَّدَت الفكرة. الافتتان. عندما طلبنا الطعام في المطعم، الذي كان ممتلئًا بأناسٍ مثلنا، احترق وجهي وتساقط المطر قطراتٍ من شَعري، ثم هَزَزتُه ككلب لابرادور، وانطلقت القطرات طائرةً، وضحك مايك، والضحك هو إحدى الطرق لتهزَّ نفسك.

هزَّ نفسك هو الطريقة الوحيدة للنجاة. كظبيٍ يهزُّ نفسه بعد أن نجح في الهروب بالكاد. كقطَّةٍ تصادف طفلًا شقيًّا وتهزُّ نفسها. ما يُمرضني هو الحزن، فكَّرتُ. الحزن الذي يرفض أن يتزحزح. ثقيل وحرون وجاثم، وإذا هززتُ نفسي، حينها سيتحرَّك. إذا ضحكتُ، سأهتزُّ.

كان مايك يجعلني أضحك. أو ربما كنت أضحك من تلقاء ذاتي فحسب. كأيِّ امرأة في منتصف عمرها ترتدي الكاكي وتقهقه تحت زخَّات المطر. لكن في عقلي، صارَ مايك نوعًا من العلاج، شيئًا بمقدوره تبديل كل هذا الحزن الذي ينبغي هزَّه، مرَّةً واحدة وإلى الأبد.

عجيبٌ أمر الاكتشافات. بالكاد تُغيِّر أي شيء. كالفتاة الصغيرة في قصص هانز كريستيان أندرسون وعُلب كبريتها. أعواد الكبريت تشتعل

خاطفةً، ثم يظهر ضوءٌ، وحلمٌ، ومخرجٌ. بضعة مرَّات أخرى بعد ذلك وينتهي الأمر.

طلبَ مايك «ماسَّامان» بالكاري وبيرة من برميل. وطلبتُ حساء «توم كا جاي» و«كريتنج داينج». بدا كمارلون براندو، فكَّرتُ بغتةً- كنسخة متطاولة، تعيسة من مارلون براندو. حاولَ أن يجتذب نظري، لكن فور أن نجح في ذلك، أشاح بنظره. سألته كيف يتخيَّل مستقبله. كيف يتوقَّع الحياة في منزله الجديد في شمس ورمال «كو ساموي».

أتخيَّل الوقت يمرُّ، أشيخ ببطء وثبات. العيش بطريقة أشعر بها. ألَّا أفعل شيئًا. التنفُّس فحسب. الأكل والتبرُّز والتنفُّس.

لم توحِ تلك الإجابة -فكَّرتُ- أنه جاء إلى تايلاند من أجل شراء خدمات الفتيات بينما يستغرق في الشُّرب ليصل إلى قبره قبل الأوان، بعيدًا عن اعتراضات الأصدقاء والعائلة.

ماذا تشربين؟ سألني وأخبرته أنني مدمنة على مشروبات الطاقة، أنني نادرًا ما أحتسي القهوة، وأبدًا لا أحتسي الكحول. اندهش مايك، لكنني فسَّرتُ له لماذا لا أشرب الكحول.

لم يكن هذا من طَبعي على الإطلاق. لستُ معتادة على تبرير نفسي للآخرين. لا أعرف لماذا رأيتُ مايك جديرًا بالثِّقة. لا أستطيع أن أُحدِّد بالضبط ماذا كان يكمنُ في سلوكه وأيقظَ هذه المشاعر داخلي، تلك الألفة وذلك التَّوق إلى الحميمية.

عندما كنتُ مُراهقةً -في السادسة عشرة، السابعة عشرة، لا أتذكَّر بالتحديد- ثملتُ للمرَّة الأولى والأخيرة. انطلق والدا صديقتي في رحلة إلى الخارج، وبقِيَت هي وشقيقها وحدهما في المنزل.

قرَّرنا إقامة حفل. دعا شقيقها أصدقاءه ودعونا صديقاتنا. ثم احتسينا البيرة و"اللاندي" المُصنَّع منزليًّا. استمعنا إلى ليتل إيفا، وضعنا الإبرة على أغنية "إيماءات المجنون" حتى كشطنا اسطوانة الموسيقى. احتسيتُ بضعة كؤوس صغيرة. كانت نسخة مُقلَّدة باهتة الألوان لإحدى لوحات ماتيس على الحائط، تلك اللوحة الشهيرة جدًّا التي تُصوِّر نساء عاريات يستلقين ممسكاتٍ بأيدي بعضهن البعض ويركضن في حلقة على العشب تحت شمس زرقاء. أكره تلك اللوحة. الرقصة.

أكره "إيماءات المجنون". أتطوَّحُ مُلتفَّةً في دائرة، أركلُ قدميَّ، مع حفيف الجونلات، خارجةً من بين ذراعَيْ الشقيق، إلى ذراعَيْ صديق الشقيق، إلى ذراعَيْ صديقٍ آخر للشقيق، عائدةً إلى الشقيق، ثم سَواد. الشيء التالي الذي أتذكَّره، هو الغد. كانت صديقتي بجواري في الفراش. ما زلتُ أرتدي جونلَّتي، لكن ليس سروالي الضيِّق.

أتذكَّر كل شيء.

السجادة الأكريليك تحت باطن قدمَيَّ

أتذكَّر كل شيء.

صفراء وخشنة مع خطوط برتقالية.

أتذكَّر كل شيء.

أشكال عروق الخشب في الألواح البلاستيكية على الحوائط في الرَّدهة.

أتذكَّر كل شيء.

ألواح الأخضر الطحلبي.

أتذكَّر كل شيء.

اللوحات على الحائط.

أتذكَّر كل شيء.

كل شيء في حدِّ ذاته.

أتذكَّر كل شيء.

الألوان، الأشكال، هل كانت أصليَّةً أم مُقلَّدة.

الآنية الخزفية على الأرفُف.

الحشد الأبيض للأطفال الخزفيِّين وفتاة الكبريت الصغيرة على علبة السجائر:

ساعِدي نفسك.

أتذكَّر كل شيء.

الأطباق التذكاريَّة الدنماركية، طبق لكل عام، وأيَّة أعوام كانت مفقودة.

أتذكَّر الصوت الذي أصدره الماء في تدفُّقه من الصنبور في الحوض، إلى كوب ورقي، إلى فمي، الملتهب من العطش، وأتذكَّر كيف انصبَّ داخلي وأين انقطع شعوري به في حلقي.

أتذكَّر الأنسجة في فستاني، أتذكَّرها جيدًا، وكم كنت أكرهها. لا أعرف لماذا، لكنني كنتُ أكرهها وأكره كيف شكَّلَت شباكًا تضيق حول نهدَيَّ ورَحِمي. من أين جاءت تلك الأنسجة؟ عُقَدٌ من الصوف أو القطن أو الكتَّان غُزِلَت إلى خيوط. أين؟ مَن غزَلَ تلك الخيوط، وفي ماذا كان يفكِّر وهو يغزلها؟ أكرهها. كان سروالي الضَّيِّق مشدودًا بين مقعدين. رقيقًا كالورق، بلون الرمال، ومربوطًا بإحكام بين أقدام

المِقعدَيْـن، مَخيطًـا بينهـما كمَهـد القطَّـة. أبـدًا لم أعـرف لمـاذا. أبـدًا لم أكتشـف. لا أحـد يتذكَّـر. تَسـمُّم كحـول؟ بـيرة رديئـة أو «اللانـدي» أو كثـيرٌ منـه. في الهـواء، الرائحـة المنتنـة المتصاعـدة للعصـارة الصفـراء.

احتَسَـت صديقتـي الـشراب في عطلـة الأسـبوع التاليـة وشـقيقها، أيضًـا، وصديقاتنـا وأصدقـاء شـقيقها، لكننـي لم أحتَـسِ الـشراب مُجـدَّدًا أبـدًا.

ولا حتَّى رشفة واحدة.

فتاة ذكية، قال مايك ورفع كأسه تجاهي.

عندمـا عدنـا إلى الفنـدق تلـك الليلـة، دعـاني إلى غرفتـه. نزعنـا أحذيتنـا واسـتلقينا جنبًـا إلى جنـب عـلى الفـراش الكبـير. فتـح مايـك زجاجـة بـيرة وشـاهدنا التلفـاز.

كان هنـاك چـنرال يعقـد مؤتمـرًا صحفيًّـا. بجـواره يجلـس الجـاني، عـاري الصـدر. مُقَيّـدًا ويبـكي. تحـدَّثَ الچـنرال ببـطء وهـدوء. وصـف الجريمـة بطريقـة متأنِّيـة ومـع كل كلمـة، كان الجـاني يكافـح لإخفـاء وجهـه في صـدره أكـثر. تـأوَّهَ مايـك. لا أعـرف إن كان بسـبب الضجـر أم الشـفقة.

كيف تتخيَّل حياتك في تايلاند؟

العيش بطريقة يمكنني معها الشعور بذاتي تتنفَّس.

طالمـا كنـتُ مضطـرَّةً للانتبـاه إلى الأشـياء الصغـيرة مـن أجـل الصمـود في وجـه الحيـاة. شـكل ظُفْـر إصبـع قـدم يملـؤه الفُطْـر، باديًـا مـن ثُقـب في الجـورب. الرائحـة الحلـوة الخافتـة لفـروة رأس زيتيـة. الشـعيرات الهائمـة السـوداء البـارزة مـن الآذان أو الأنـوف أو الشـامات. هـذه التفاصيـل تبقينـي عـلى الأرض وتُذكِّـرني بمَـن أكـون -في أي جسـدٍ أسـافر، وحـدوده- وتحمينـي أيضًـا. تُبقينـي عـلى مسـافة مُعيَّنـة، تملـؤني بالاشـمئزاز وتعفينـي مـن الـزَّلّات الأيدولوچيـة.

الحبُّ. الرغبة. التَّوْق.

انظري إلى يديكِ، كانت جدتي تقول عندما كنتُ صغيرة وأخاف الذهاب مع الكشَّافة أو إلى الرحلات الميدانية أو إلى تدريبات الكورال الموسيقية أو مجرد الذهاب إلى المدرسة.

انظري إلى يديكِ وتذكَّري مَن لديه يدان؟ مَن لديه يدان؟

البشر لديهم أيدٍ.

ومَن يكون إنسانًا؟

أنا إنسانة.

يقتحم افتتاني حصوني الدفاعية ويُعميني. إنه مَجاز، بالطبع، أعرف، لكنني عمياء حقًّا ولا أعرف ما يوجد أمامي. لا وجهه، ولا طريقته، ولا تعبيراته- لا أفهم ما يعنيه هذا. كل شيء مطموس أمام عينَيَّ. أوردة مُتوسِّعة، أوتار، مسام متضخِّمة، أوردة زرقاء، جلدٌ حميميٌّ ذو التواءات، شرائح جُبن مُفضَّلة. بَوْلٌ بُنِّيٌّ قاتم في بداية اليوم. لثةٌ ملتهبة. انمحاءات.

ماذا يقصد (هو)؟

بدعوتي إلى فراشه.

لماذا لا يقول أي شيء؟

ماذا يظنُّ؟

هذان الرُّسغان بديعان.

رائحته.

هل كانت تلك الرائحة هي ما أفقدني اتِّزاني؟ أم شيءٌ بدائيٌّ جدًّا؟

تأمَّلتُ في كل هذا، بكل جدِّيَّة. ما إذا كان مجرد شيء حيواني بالكامل. أم أنه ذلك الشيء في تجميعات چيناتنا الفريدة وقد انفجر بقوة. كنت في السادسة والأربعين من عمري. قد تكون الفرصة الأخيرة على الإطلاق. ليست لديَّ رغبة في إنجاب طفل، لكن لماذا يرغب جسدي في واحد؟ معقودة اللسان، مُترقِّبة، ومنفصلة تمامًا عن نظام الأمان في أسوأ وقت ممكن؟

بالنظر إلى الوراء، كانت هناك علامات وامضة لا تُحصى. أشياء قالها. وجوهًا اتَّخذها وطُرقًا تحرَّك بها. في حدِّ ذاتها لا تعني شيئًا، لكن عندما أضعها معًا، أرى بوضوح مُطلق ما كانَه. كان ينبغي أن أرى الأمر طوال الوقت، لكن وأنا أستلقي هناك بجواره، كل ما أردته كان الشعور بدفئه بقوَّةٍ أكبر.

اقتَرِب، فَكَّرتُ، واحترقتُ، وتَجشَّأ بفِعل البيرة دون اعتذار.

ماذا كنت تعمل قبل تقاعدك؟

كنت سائق شاحنات.

هل أحبَبتُ الأمر؟

حياة الترحال كانت تناسبني.

ماذا كنت تنقل؟

أووووههههو، هذا وذاك.

مثل ماذا؟

جُثَث. أسلحة. أطفال... في لفائف فُقاعيَّة.

(17)

تلَقَّت الفرقة المسرحية رسالةً من إلن. قالت إنها لا تشعر بحماس لحضور أي بروفات أخرى لأن أمَّها مريضة للغاية، لكنها تثق فينا بالكامل لإنجاز مسرحيتها.

سرعان ما غادرتُهم بدوري، رغم أنني وعدتُ مُصمِّمةَ المَشاهد بمساعدتها عندما يحين الوقت. ثم وصلت رسالة أخرى. قالت إلن إنها كانت تقرأ المسرحية وتريد أن تسأل الفرقة بأكملها، بكل جدِّيَّة، إن كان من الأفضل تأجيل الإنتاج.

أغضبَ هذا المُخرج. شعرَ أن سلوك إلن يعني نقص الاحترام تجاه عمل الآخرين، وذكَّرها أنها وقَّعَت عقدًا. هل تدرك حجم الأموال التي خُصِّصَت بالفعل لهذا المشروع، وأن كل هذه الأموال ستتبخَّر فجأةً إذا غيَّرَت رأيها بهذه البساطة الآن؟ قفزَ مزيدٌ منهم إلى المعمعمة. استطال تيار رسائل البريد الإلكتروني حتى لم أعُد قادرةً

على تتبُّع المحادثة، لكن الشيء الأساسي كان أن المسرحية لن تنطلق في موعدها.

حظًّا طيِّبًا في عرض مسرحيتكِ القادمة، كانت آخر كلمات المُخرج إلى إلن وفي الواقع، الكلمة الأخيرة في الجدال بأكمله، لأن إلن لم ترد إطلاقًا.

لم أرها لبضعة أشهر. توقَّعتُ أن أراها في ليلة الافتتاح، لكنها لم تكن في أيِّ مكان. أثار العرض آراءً متباينة. كان المُخرج، بالتعاون مع المؤلف المسرحي في المسرح، هذا حقيقي، قد بسَّطَ القصة بشكل كبير، وحذفوا تقريبًا كل الإكسسوارات التي أوكلوا لي صنعها.

مضى العرض بشكل جيِّد- أجاد الممثِّلون أدوارهم، وتصميم المشاهد كان مُقنعًا. النَّصُّ نفسه كان مكتوبًا ببراعة، بالنظر إلى عمر كاتبة المسرحية، إلخ، إلخ... ثم سمِعَ الإعلامُ باستياء إلن تجاه الإنتاج. أشكُّ أن المُخرج نفسه له يَدٌ في صناعة هذا الخبر. لم تُجِب إلن عن أيَّة أسئلة، وبالتالي لم يخرج من سيرك الإعلام شيءٌ كان المُخرج يأمل فيه بلا شكٍّ.

أبقَوا على اثنين من الإكسسوارات. أحدهما كان فجوةً هائلةً محشوة بالعشب من الداخل- فجوة تدور وتضيق وتتَّسع كدوَّامة على المسرح. كانت مُصمِّمة المشاهد مسؤولة بالكامل عن هذا، بالتعاون مع قسم الإكسسوارات.

المنحوتة الأخرى كانت أفعى عاصرة خضراء عملاقة. كنتُ مسؤولة عنها وصنعتها حسب مواصفات النَّصِّ بالضبط. كما لو كانت أفعى حقيقية. كانت بطول خمسة أمتار وتَزِن مائتين وخمسين كيلو جرام.

مـن ناحيـة الجمهـور، لم تكـن هنـاك طريقـة مُمكِنـة لتحديـد مـا إذا كانـت الأفعـى حقيقيـة، ولا حتـى عندمـا تقـترب منهـا. عليـكَ أن تلمسـها حتـى تتأكَّـد، لكنهـا كانـت تُسـبِّب الانزعـاج لمـن يراهـا.

كانـت الأفعـى العـاصرة الخـضراء حقيقيـةً أكـثر من أفعـى حقيقيـة، إذا كان لي أن أقـول. حقيقيـة جـدًّا لحـدٍّ أنهـا تنزلـق في أفـكار النـاس طـوال وقـت العـرض، حتـى وإن كانـت تسـتقرُّ هنـاك فحسـب، سـاكنة كالـرُّكام. جميـع الشـخصيات تُسـحق حتـى المـوت. بعضهـا تسـقط في دوَّامـة وأخرى في أحضـان الأفعـى. كثـيرٌ مـن النُّقَّـاد وجـدوا هـذا مُتوَقَّعًـا تمامًـا، بينـما تحـدَّثَ آخـرون عـن" مسرحيـة محورهـا الإكليشـيهات".

مـن ناحيتـي، وجـدتُ الأمـر أكـثر مـن مُشـبع أن أراقـب الشـخصيات وهـي تُعـصَر وتُعـذَّب. يفـترض أن يكـون الأمـر كوميديًّـا غرائبيًّـا، لكنـه لم يُضحـك أحـد. كانـت هـذه المشـاهد طويلـة وخرقـاء. الـشيء نفسـه مـرارًا وتكـرارًا. تحـدَّثَ بعـض النُّقَّـاد عـن التكراريـة، بينـما تحـدَّث آخـرون عـن "مسرحيـة محورهـا التكـرارات".

لم يتحـدَّث أي ناقـد عـن العلاقـات النفسـية الفُرويديـة الواضحـة. كيف أن شـخصيات كثـيرة كانـت تشـعر بحصـار المـوت حولهـا قبـل أن تُطعـن أو يُطلـق الرصـاص عليهـا. ربمـا اعتـبروا حديثًـا كهـذا قديمًـا ومبتـذلًا بعـض الـشيء، لكنهـم تحمَّسـوا كثـيرًا لمناقشـة المراوغـات التخاطُبيَّـة وأسـلوب هريـذر الأيديولوچـي.

ندمـتُ عـلى عـدم إعجـابي بمسرحيـة إلـن منـذ البدايـة. الحقيقـة كانـت أنـه كلَّـما سـمعتُ الأسـطر كلَّـما رأيتهـا بشـكل أفضـل. كانـت الجُمَـل تُحـدِث انقلابًـا وتتوهَّـج وتـزداد تألُّقًـا كلـما اعتـدتُ عليهـا. في ليلـة الافتتـاح، شـعرتُ أن المشـكلة في المُخـرج، وليـس المسرحيـة، وداومـتُ عـلى التفكـير في كلماتـه الأخـيرة في سلسـلة رسـائل البريـد الإلكـتروني:

حظًّا طيِّبًا في عرض مسرحيتكِ القادمة.

وتساءلتُ عن تأثير هذه الكلمات. هل يراها بعض الناس ربما كعلامة على نهاية مسيرتهم الفنية وهل تكون إلن من بينهم. وجدتُ الأمر حزينًا. في نفس الوقت، حيَّرتني المشاعر الأمومية التي أثارتها فيَّ.

أبدًا لم أُرسل لها ردًّا على اعتذارها. عادةً ما أتراجع نافرةً عند أقل بادرة رفض وأنسى الشخص تمامًا. الاعتذارات في رسائل نصِّيَّة لا تكفي البتَّة لمداواة الجرح.

في أثناء ذلك، أنهيتُ كل مشاريعي من أجل فيلم النوار (Noir) الشَّماليِّ- قرن الكَركَدن، سبع قطع من جسد فتاة مراهقة. الرأس محروق ويُزبِد في الفم، العينان تُحدِّقان وقد انفجرتا منذ زمن بعيد، في قلب الرعب. ندبة على وجه الممثلة. قرَّرتُ أن تكون الندبة بسبب حمض النتريك.

استمتعتُ بصنع آثار ما بعد انسكاب الحمض. كيف يُذوِّبُ كل شيء، ويتحوَّل إلى وحل من أكثر الجزئيات صلابةً.

صنعتُ اليد ذات إصبع القدم الكبير الذي كنت رقَّعتُه بدلًا من الإبهام -وهو ما كان علامةً مميزة في المجرم- وحيوان مِنك، أُفرِغَت أحشاؤه ثم مُلِئَ بالمخدِّرات. اقترحتُ على المُخرج أن يجدوا مزرعةَ مِنك ويجلبوا بضعة جِيَف لتجميدها، لكنه ارتعش من الفكرة.

بدلًا من ذلك، أرادَ منِّي أن أصنع نسخة عديمة الرائحة، لا تشعر بالألم. أحيانًا ما أتعجَّب من افتتان الناس بأفلام الرعب الدموية، هذه الحاجة الأبدية للشعور بالاشمئزاز. كنتُ أنجزتُ طلبات عمل مُقزِّزة كثيرة، والأناس الذين يرسلون إليَّ كانوا متأنِّقين للغاية. رجال في سراويل چينز صفراء كصفار البَيْض ونساء ذوات أفواهٍ مُشكَّلةٍ برهافة. أمر مثير جدًّا.

أو ربما الأمر ليس كذلك. ربما هو مُضجر بشكل مُطلق، مجنون. الناس الذين يحملون ارتعابات حقيقية داخلهم عادةً ما يعرفون كيف يخجلون من أنفسهم. يستيقظون ويشقُّون حلوقهم بغتةً في نومهم، مُثيرين الدهشة في الجميع.

(18)

كان الحصان الزجاجي يستقرُّ في قاع دُرج الخزانة في المنزل. بعد أن عجزتُ عن إيجاد طريقة حاسمة ونهائية لتدميره، ألقيته في ذلك الدُّرج. ثم انقَضَت أسابيع. في كل مرة أصل فيها إلى البيت، وأرى الخزانة هناك في الردهة، وأفكِّر بشأن الحصان، تسري عبري موجةٌ من الألم.

صرتُ الآن معتادة على الألم، تعلَّمتُ كيف أتناوله، كأي حبَّة دواء مُرَّة. وهكذا، ذات ظهيرة، فتحتُ الدُّرج، تناوَلتُ الحصان، ووضعته في جيبي. ثم عدتُ إلى الخارج، وقدتُ السيارة بضعة دورات حول المدينة. عندما حلَّ الظلام، انطلقتُ إلى منزله على بعد بضعة بلدات، في جارذابايـر. أوقفتُ السيارة ليس بعيدًا. تطلَّعتُ عبر نافذة المطبخ، التي تواجه الشارع. رأيتُ زوجته مشغولةً بإناء. هل سيجلس فحسب في غرفة المعيشة يشاهد الأخبار بينما تطهو هي لفائف الكرنب أو تقلي سمك القُدِّ؟

فيولا، شقيقته وصديقتي، كانت ميِّتة- أصيبت بانسداد الشريان التاجي، ثم جلطة، وأخيرًا بأزمة قلبية، قبل أن تبلغ السِّتِّين تقريبًا. كان ذلك عندما رأيته ثانيةً. في الجنازة، ورأيتُ كل شيء. تذكَّرتُ كل شيء. أدركتُ كل شيء. كان الأمر في غاية الغرابة. أولًا، كان وجهه، كم شاخَ وأين تكوَّنَت التجاعيد، ثم تحديقته، وكيف أشاح بها عن تحديقتي. وصلتني الرسالة في غمضة عين، بلا ذرة شكٍّ، ولا حتى لثانية واحدة.

ما كان قد فعله بي استمرَّ في العيش في خلاياه وفي جزئياته الأوَّليَّة وصار، مع مرور الوقت، مرئيًّا.

أنا خائب، قالت عيناه.

أتهجَّم على الفتيات أثناء نومهنَّ، قالت شفتاه المزمومتان.

أنا مُضاجِع الموتى، قيلت على جبينه.

تقدَّمَت الأمسية. رأيتُ شكله البشري مرَّاتٍ قليلة. خلدا إلى الفراش حوالي الحادية عشرة. الرجل وزوجته، في سِنِي عمرهما الذهبية. اختبأتُ لساعةٍ أخرى تقريبًا، وعند منتصف الليل، تسلَّلتُ إلى المنزل، هجمتُ على أصيص الزهور ووجدت المفتاح تحته. يَسهُل التنبُّؤ بتصرُّفات الناس؛ ذلك أنهم يطفحون بالثقة في أنفسهم.

فكرة إخفاء مفتاح المنزل تحت البساط أو في أصيص الزهور لم تخطر ببالي قطُّ. لا أفهم أبدًا لماذا لا يتوقَّع الناس اقتحام منازلهم. لستُ أنني أخاف اللصوص كثيرًا أو أنني أخشى على حياتي، لكني أتوقَّعهم، وبمعنى، جميعنا مسروقون دائمًا، في كل يوم في حيواتنا. أحيانًا يُسرق الحب أو السعادة، لكن دائمًا، تُسرق الحقيقة على الأقل.

انفتح الباب بلا صوت، دلفتُ بهدوء كالظلال. أغلقته برفقٍ ورائي وانسللتُ إلى الرَّدهة، رأيت نفس نوع الخزانة التي لديَّ في منزلي. كان هناك بعض الصَّرير عندما فتحت الدُّرج الأول، حبستُ أنفاسي، وقفتُ متجمِّدةً. كانت في الدُّرج قُفَّازات وأوشحة.

كل الأشياء التي تنتمي لزوجته، قلت لنفسي، وكم سيكون ملائمًا أن أترك لها هي الحصان. وضعته في الأعلى، فوق منديل أزرق بالتحديد.

هكذا بالضبط.

ثم خرجتُ مُجدَّدًا. أغلقتُ الباب ورائي بلا صوت ودسستُ المفتاح تحت أصيص الزهور.

حصان مصنوع من الأوشحة- أوشحة رثَّة، بيج، زرقاء، مُزخرفة، من البوليستر، وأحيانًا، حريرية- انطلق في خَبَبِه، اندفع إلى الليل، ثم اختفى.

(19)

كانت ليليا تقول دائمًا إن إلن وَرِثَت طيشها من أبيها، ذلك الذي كان طائشًا تجاه هذا العالم.

هل أنا أيضًا طائشة تجاه هذا العالم؟ سألَتها إلن ذات مرة عندما كانت صغيرة، وأجابتها ليليا أن لا هي ولا ابنتها كانتا من هذا العالم، لم تُخلقا لهذا العالم، لم تُخلقا من نفس مادة العالم.

إنهم المتصيِّدون، قالت، المتصيِّدون الذين شيَّدوا هذا البلد. استخدموا أحابيلهم الماكرة للهروب من الشمس، والآن، كل شيء يتحوَّل إلى حَجَر.

كانت ليليا على الهاتف عندما دلَفَت. توقَّفَت إلن وأنصتت لوهلة.

... المقبرة مفتوحة للجميع، قالت.

... أيُّ إنسان حرٌّ في أن يترك زهورًا لأيِّ إنسان.

... أو الصوف أو أيًّا ما يحبُّه.

... من المسموح تمامًا حفر التُّربة قليلًا... لوضع بصيلات الزهور مثلًا.

تريد ابنتي أن تتحدَّث معك، قالت حينها بغتةً وناوَلَت إلن الهاتف.

أخبريهم أنه عمل فنِّيٌّ، همَسَت فيما إلن تتناول الهاتف.

لم تكن المرَّة الأولى التي تتواصل فيها الشرطة بشأن ما تدعوه أرملة ألفور فينسون بأفعال تخريب المقابر. كانت ليليا تُسمِّيها بتركيبات أو منحوتات «الأضرحة الفانية» أو «خسارة الأعوام 1 و 2 و3» أو «وَقعُ خطوات من داخل امرأة» أو مؤخَّرًا، «الصمت الدافئ!».

كانت غرَزَت أسافين في التُّراب على قبر ألفور واستخدمتها لرسم شكل الكِنزة ثم غزلت الخيوط من كِنزته القديمة بين الأسافين، بإحكام ودقَّة.

كان حارس المقبرة ودودًا. سألها عن حال إلن وقال إن هذا ليس إلَّا تذكيرًا. كان اعتذاريًّا في لهجته عندما قال إن الأرملة، لوفي، قد ذكَرَت شيئًا بخصوص الشُّرطة وأمرٍ تقييديٍّ. وَعَدَت إلن بأن تحاول التَّحدُّث مع أمها، لكنها أشارت أن أمَّها لها الحقُّ في زيارة قبر والد طفلتها.

زيارتها، نعم، قال حارس المقبرة. المشكلة في هذه الأسافين وخيوط الغَزْل.

أفهم، قالت إلن، مُتطلِّعةً إلى عينَيْ أمِّها المترقِّبَتَيْن.

لكنني آمل أن تفهم بدورك أن أمي فنانة، وهذه هي طريقتها للتعبير عن نفسها، وأنها تفعل ذلك بدافع من الاحترام تجاه ذكرى أبي.

بالطبع، قال حارس المقبرة، وأغلق الخطَّ. تناوَلَت ليليا الهاتف مُجدَّدًا وأظهَرَت لإلن الصور التي كانت التقطتها للقبر مع خيوط الغزل مشدودةً عبره بإحكام.

يجعلكِ ترغبين في الاستلقاء في هذه الأذرع الممدودة، قالت إلن، وأومأت أمُّها. أشعَلَت سيجارة بلا اكتراث، وسألت إلن كيف مضى الأمر في المسرح. قبل أن تتلقَّى إجابةً، استقبَلَت ليليا على هاتفها رسالة بريد إلكتروني جديدة، قرأتها بصوتٍ عالٍ.

كان خطاب رفض من متحف ريكياڤيك للفنون. قبل ذلك ببضعة أشهر، كانت ليليا قد قدَّمَت طلبًا لإقامة عرض في واحد من الجاليريهات الصغيرة. حينها ظلَّت إلن مستيقظةً طوال الليل معها وساعدتها في تقديم الطلب. كانت لدى أمِّها فكرة واضحة عن العرض، وكانتا راضيتَين تجاه الملف عندما أرسلتاه إلى المتحف.

لماذا أجابوا بالرفض؟ قاطعت ليليا نفسها في منتصف القراءة. لا يقولون شيئًا على الإطلاق. لا شيء سوى هراء من نوع «حاولي مرةً أخرى رجاءً في وقت لاحق».

ألقَت إلن نظرةً من فوق كتف أمها وقرأت الخطاب القصير.

هل ينبغي أن نتصل؟ سألَت ليليا، لكن إلن أجابتها أنه لا فائدة من ذلك.

ثم يندهشون عندما أتسلَّل إلى المقبرة ليلًا. لا مجال أمامي في أي مكان! أنا أختنق!

هـل نمـتِ الليلـة الفائتـة؟ سـألَت إلـن، تاركـةً تمثيـل أمهـا المُصطنـع يمـرُّ بـلا تعليـق.

ربما قليلًا، لا أعرف. لا أتذكَّر.

هل أستدعي الطبيب؟

أوه، لا.

خَطَت إلـن إلى غرفتها وأغلقـت البـاب لتجلـب مفتـاح خزانـة الأدوية. كانـت خزانـة الأدويـة في حجـرة المكانـس في المطبـخ، صنـدوق حديـدي أبيـض بصليـب أخـضر فوقـه. وجـدت الأقـراص المناسـبة وأقفلـت الخزانـة عـلى الفـور، ثـم مـلأت كوبًـا مـن الصنبـور وأعطـت أمَّهـا دواءهـا. ابتلَعَـت كلَّ الأقـراص عـلى الفـور.

انتهـى كل شيء، غمغَمَـت ليليـا وجلسـت في مقعدهـا بجـوار المنضـدة الصفـراء، أشـعلت سـيجارةً، ونظـرت بخـواء عـبر النافـذة إلى الخليـج الصغـيرة.

هـذا أفضـل، غمغَمَـت، ودلَفَـت إلـن إلى غرفـة نومهـا. كانـت سـتائر التعتيـم مـا تـزال مسـحوبةً عـلى النوافـذ، لكـن بـدلًا مـن فتحهـا، أضـاءت المصبـاح. ترَكَـت نفسـها تغـرق في سريـر الأطفـال الكبـير، الـذي لم تلاحـظ أنـه غـير مريـح، وانتزعـت النَّـصَّ مـن حقيبتهـا.

كانـت إلـن تعيـش في غرفـة نومهـا طويـلًا قَـدَر مـا تتذكَّـر، وعـلى قـدر مـا تتذكَّـر أبـدًا لم تُطْـلَ. كانـت هنـاك قطعـة فنيـة عـلى الحائـط صنعتهـا أمُّهـا عندمـا كانـت في أكاديميـة الفنـون. كانـت عبـارة عـن الكلمـة «خـواء» VOID مكتوبـة بالقطـران عـلى لوحـة باهتـة، مُلطَّخـة تحـت الزجـاج، ومؤطَّـرَة بعنايـة.

حوائط غرفتها -كما هو الحال مع حوائط الشَّقَّة الأخرى- مغطَّاة بخربشات ورسومات. من اللحظة التي تعلَّمَت فيها الإمساك بقلم رصاص، كانت أمُّها تُشجِّعها على الرسم على أيِّ شيء تقع عيناها عليه، وأحيانًا ما كانتا ترسمان على الحوائط.

سرعان ما اكتشف واحدٌ من زملاء إلن في المدرسة أنه في منزلها، بمقدوره أن يرسم على الحائط ويشقَّ الأثاث إذا رأى أن ذلك سيخدم غرضًا فنيًّا، وبعد ذلك صارت الحوائط مُغطَّاة أيضًا برسومات أيٍّ وكلِّ طفل في الحي.

مع ذلك، طفل واحد فقط كان مَن شقَّ الأريكة. بعد أن شخبطَ بجنون على الباب وبدأ في إطلاق أصوات حيوانية، تواثب بين قطع الأثاث وانطلقَ إلى المطبخ وعادَ مُسلَّحًا بسكينٍ غرَزَها عن آخرها ثم سحبها من أريكة الشيسترفيلد.

راقَبَت ليليا الصبيَّ بهدوء فيما يتجمَّد وتتَّسِع عيناه، يتطلَّع إلى السِّكِّين في يده الصغيرة وإلى الجُرح في الجلد. كان يبدو «آسفًا».

هاك، قالت ليليا حينها، حاشرةً وشاحًا زاهي الألوان في الجُرح.

هذا لطيف، قالت، وربَّتَت على خدِّ الصبي. ما يزال الجُرح موجودًا، لكن ليس الوشاح.

ذات مرة، زارتها فتاة بعد انتهاء المدرسة. كانت إلن في الحادية عشرة من عمرها، والفتاة في الصَّفِّ الدراسي الذي يعلوها. كانت إلن تخشاها قليلًا، ومتفاخرةً بنفسها قليلًا أيضًا، ما الذي يدعو الفتاة لزيارتها. أدرَكَت إلن أن الفتاة من عالَمٍ آخر. يمكنك أن ترى على جلدها وفي بياض عينيها أنها كانت تزور واقع إلن وليليا لفترة قصيرة.

حيَّتهما ليليا وسألتهما إن كان يرغبان في احتساء أو تناول شيء. هل ترغبان في بعض القهوة؟

لا أشرب القهوة! احتجَّت إلن، وقهقهت الفتاة. لا تشرب القهوة كذلك.

إذن فربما أقدِّم لكما الصودا أو الشاي... أو الماء؟

الكوكا مبتذلة، قالت إلن مُحذِّرةً. نشربها منذ رأس السنة. قهقَهَت الفتاة وقالت إنها ليست عطشى. كانت تتطلَّع إلى كل شيء في الشَّقَّة كما لو كانت دفَعَت رسم دخول. كان لديها رأس أطول من إلن وشَعرٌ أسود طويل متماوج ولامع. تحت كنزتها البيضاء كان يقبع نهدان رأتهما إلن ذات مرَّة في المغتسل بعد درس السباحة، وتعرف أنهما على شكل هرمين.

كانت تعرف أيضًا أن هذين النهدين كانا عظيمين. أن اللمعان في شَعرها كان بديعًا، لكنها لا تفهم تمامًا لماذا أثار هذا اهتمامها كثيرًا، هي إلن. عندما تحدَّثَتا معًا للمرَّة الأولى في فناء المدرسة في اليوم السابق وكانت الفتاة ودودةً معها، أدركتْ إلن جيدًا أنها تخشى شيئًا ما، أن الفتاة لم تكن تدردش بدافع الدردشة فحسب. فتيات كهؤلاء لا يفعلن أي شيء دون غرض.

لكن الأمل ظلَّ قائمًا، ساذجًا ومتألقًا في صدر إلن المنبسط، الأمل أن اليوم الأول في حياة جديدة قد صادفها الآن. لم تكن واثقة تمامًا كيف ستكون هذه الحياة، لكنها اشتمَّت تلك الحياة في شَعْر الفتاة، وسَمِعَت البهجة في ضحكاتها الأخَّاذة.

ألا تقوم أمُّك بالتنظيف أبدًا؟ همَسَت الفتاة بودٍّ حميمي عندما صارتا في غرفة إلن، وأدركت إلن بغتةً حالة بيتها. نَدِمَت على دعوة الفتاة لزيارتها، لكنها كانت تعرف في نفس الوقت أنه الخيار الوحيد.

لأن السبب الوحيد لاهتمام الفتاة كانت القصص التي تدور حول إلن وأمِّها وكل تلك الحوادث الغريبة التي تقع في منزلهما.

إذن، ما هو شعورك وأنتِ لديكِ أمٌّ ذُهانيةً جدًّا هكذا؟ سألت الفتاة. كان هناك فضول أصيل في صوتها. بنبرة صوتها، بدت كلمة «ذُهانية» كمجامَلَة.

لم تجب إلن. شغَّلَت جهاز الكمبيوتر وبدأت في البحث عن مقطع فيديو ظريف كانت رأته في الليلة السابقة لتريه للفتاة.

نعم، رأيته من قبل، قالت الفتاة بنَفادِ صبر، فاتِحةً أحد أدراج الخزانة.

لا تفتحي أدراجي! صرخت إلن، مُغلقةً إيَّاه بقوة مجدَّدًا.

آسفة! قهقهت الفتاة، وشعرت إلن بالحَرج. كانت ترغب في رحيل الفتاة، لكنها لا تستطيع قول ذلك. اقترحت أن تذهبا إلى المتجر على الناصية، لكن الفتاة عبَسَت بوجهها فحسب.

ماذا يعمل والداكِ؟ سألتها إلن، وأجابتها الفتاة أن أباها يعمل في السياسة، وأمها تعمل مديرةً في جمعية رياضية. كانت الكلمات تنساب من شفتيها بلا أدنى اكتراث، وقرَّرَت إلن ألَّا تسأل عن أي شيء آخر.

هل صحيح أن بمقدورك تدمير أي شيء هنا ببساطة؟ سألتها الفتاة بغتةً، ورأت إلن شرارة شيءٍ ما في عينيها، شيءٍ شديد العدوانية لحدٍّ أنها أشاحت بنظرها.

لا، بالطبع لا، أجابتها بسرعة.

لكن الجميع يقول إن بمقدورك ذلك، قالت الفتاة بخيبة أمل. تطلَّعَت حولها في الخرابيش على الحوائط القذرة، والمقابس العارية وكل تلك الفوضى.

لا يمكنني حتى كتابة شيء على الحائط؟ سألتها.

لا، قالت إلن.

هل يمكنني الذهاب إلى المرحاض إذن؟ سألَت، وأجابتها إلن أن بإمكانها الذهاب إلى المرحاض، لكن عليها أن ترحل بعدها.

خرَجَت الفتاة وجلَسَت إلن في غرفتها، أخذت وسادتها بين ذراعيها، ورفعتها إلى وجهها. بعد لحظات، سمِعَت ضحكات أمِّها تتداخل مع صوت الفتاة الرَّنَّان. خرَجَت ورأت أن الفتاة ترسم على حائط غرفة المعيشة. كانت تشخبط فحسب عشوائيًّا بقلم ماركر أسود لا يُمحى، ليست كلمات أو صور، بل تشخبط كالبلهاء، ثم توقَّفَت إلن عند المدخل، استندت على الحائط، وراقَبَت الفتاة وليليا.

كانتا تضحكان، والفتاة تخربش، ثم قالت ليليا شيئًا ما وشغَّلَت الراديو، ومنه انبعثَ برنامج ما لموسيقى الچاز وعزف أبواق أحادي، وحينها كانت الفتاة اكتفت من الشخبطة على الحائط. ركَعَت على ركبتيها وشرَعَت في الشخبطة على الأرضية الخشبية.

لم يكن أحدٌ قد شخبط من قبل على الأرضية الخشبية.

ليس الأرضية! صرخت إلن، لكنَّ أمَّها ابتسَمَت فحسب تجاهها، واستمرَّت الفتاة في الشخبطة، طوَّحَت بشَعرها اللامع وتكوَّرَت على الأرض وشخبطت.

كعنكبوت يزحف مسرعًا ويترك خطوطًا سوداء في إثره. أمسَكَت إلن بكِنزتها البيضاء وحاوَلَت رفعها عن الأرضية.

تؤ تؤ، قالت ليليا، واقفةً بينهما. لا تتدخلي في تعبيرها عن ذاتها، قالت ببرود.

إنها تُفسد الأرضية! احتجَّت إلن.

الأرضيـة مجـرَّد أرضيـة، إنهـا ميِّتـة، مجـرد شيء. صديقتـك وتعبيرهـا عـن ذاتهـا هـما الحيـاة ذاتهـا، الآن تمامًـا، هـذه اللحظـة، أكـثر أهميـةً بكثـير... اختطفـت إلـن قلـم الماركـر مـن يـد الفتـاة ومرَّرَتـه بارتعـاش عـلى كِنزتهـا، تاركـةً خطًّـا أسـود عـلى نهديهـا الهرميَّـيْن. صُعِقَـت الفتـاة.

هـل أنـتِ مُعاقـة؟ سـألَت الفتـاة. مـرَّرَت إلـن قلـم الماركـر مُجـدَّدًا، مُخلِّفـةً خطًّـا أسـود عـلى معدتهـا. تراجَعَـت الفتـاة.

كلتاكـما ذُهانيَّتـان، قالـت وخَطَـت إلى الردهـة متمايلـةً، مُغلقـةً البـاب وراءهـا بعنـف دون قـول "وداعًـا".

وضعـت ليليـا يدهـا عـلى فمهـا. ضحِكَـت. كان ذلـك ممتعًـا، قالـت. عليـكِ أن تدعـي مزيـدًا مـن صديقاتـك لزيارتنـا.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

(20)

ظهَرَت الصغيرة في نفس الوقت الذي مَرِضَت فيه ليليا. لم ترَ ليليا الطفلة الصغيرة قطُّ بعينيها. ولا الكبيرة التي كانت تعيث مُهتاجةً في الشقة، يستحيل كبح جماحها. كان شَعرُ الكبيرة يتساقط مُتثاقلًا، رماديًا ومسترسلًا، وذراعاها يتطوَّحان كغوريلا ثمِلَة، تنخر غاضبةً. مُتقيئةً كلماتٍ خافتة قبيحة، كانت الصغيرة تنسلُّ مختفيةً عن الأنظار.

لم ترَ إلن أيًّا من الصغيرة أو الكبيرة، وبالتالي، لم تكن لتتحدث عنهما أو تُجِبْ بشأنهما بصوتٍ عالٍ، لكنها عاشت معهما رغم ذلك، كما فعلت ليليا. عندما أدركت وجود الصغيرة لأول مرَّة، كانتا في نفس العمر- السادسة أو السابعة تقريبًا. ثم بلغت إلن الثامنة، ثم التاسعة، ثم العاشرة. لكن الصغيرة لم تتجاوز السابعة قطُّ.

كان بمقدور الصغيرة أن تكون دنيئة حقًّا، ودائمًا ما كانت تتنافس مع إلن. تنتزع حقوقها منها. لا حقَّ لكِ في هذا أو ذاك، طالما قيل لإلن، وإذا ارتكبت خطأً؛ تتحوَّل الطفلة إلى القسوة الوحشية.

هكذا أنتِ دائمًا، تقول الطفلة. تحتضن ليليا إلن وتقول أن الجميع يرتكب أخطاءً. لا يمكنكِ إنجاز أي شيء كما ينبغي، تهمس حينها، وترتعب إلن لحدِّ خشية أن تأتي الكبيرة هارعةً وتضربها على رأسها بملعقة خشبية.

كانت الكبيرة عنيفة جسديًّا عند الضرورة، وأحيانًا في الليل، كانت إلن تنتفض مستيقظةً خوفًا من احتراق المنزل، وتمسك الوسادة بقوة على وجهها.

بدأ عقل ليليا في التشوُّش، تباطأت كلُّ حركاتها، وصارت بالكاد تتلفَّظ بأي كلمة. تركتها إلن في سلام، حاولت أن تتجاهل الوحشية، وتظاهَرَت أنها لا تسمع صخب الكبيرة.

ثمَّ في أحد الأيام، اقترحت إلن أن تذهبا في تمشية قصيرة. امتعضت ليليا. في اليوم التالي، اقترحت تمشية قصيرة جدًّا مجدَّدًا، وفي اليوم الذي يليه أيضًا، حتى وافَقَت ليليا في النهاية. كانت إلن حريصة على أن يخرجا عندما تكون الشمس في ذروتها بحيث تحصل ليليا على بعض نورها. كان جلدها شاحبًا ومُتلبِّدًا. عيناها مهتاجتان. شبَكَتَا ذراعيها معًا فيما تلكما الصعلوكتان، الصغيرة والكبيرة، تمضيان في إثرهما، بملابس بائسة، وحيدتَين ومُنهكتَيْن.

كان طبيب ليليا على تواصُلٍ مع إلن أغلب الأحيان. كان يتمتع بصوت عميق، باعث على الهدوء، وتشعر هي بسعادة عندما يقول أشياء مثل "سنرى كيف تمضي الأمور" أو "غدًا يوم آخر". لم تحمل الكلمات أيَّ معنى أو غرض بخلاف التأكيد على عجز علم الطب في

مواجهة الأفكار الداخلية لعقل ليليا، لكن أيًّا كان الأمر، كانت هذه الكلمات تُشعر إلن أنها ليست وحيدة في العالم عندما يغمغم بها على الهاتف.

بعد واحدة من هذه المكالمات الهاتفية، تذكَّرَتْني. شعَرَت بوخزةٍ في معدتها وكتبت لي رسالتين نصِّيَّتيْن:

لم أقصد أن أكون وضيعة.

و:

أو دنيئة.

توقَّعَت أن أرسل لها ردًّا، ثم قرَّرَت أن تطلب مني لقاءً لأنها تحتاج إلى نصيحتي بشأن النَّصِّ. لكنني لم أجب وبالتالي، لم تجرؤ على طلب أي شيء. ندِمَت أيضًا على استخدام كلمة "وضيعة". أولًا "سحاقية" ثم "وضيعة". يا للحماقة!

لا يمكن قول كلمات كهذه لامرأة وقورة في عُمرٍ مُتقادم، قالت لنفسها، واحمرَّت شحمتا أذنيها. عندما أفكِّر أنها لا بُدَّ خجَلَت من نفسها وتورَّد وجهها بسببي، التوت زوايا فمي، قليلًا فحسب، واغرورقت عيناياَ قليلًا وانقبض حلقي على نحوٍ طفيف للغاية. شعرتُ بحرارة في معدتي بغتةً.

فتاة حلوة.

(21)

كان أحدهم في الداخل. كان بمقدوري الشعور بذلك في اللحظة التي فتحتُ فيها الباب. كانت الساعة الثانية صباحًا. كنتُ توقَّفتُ عند متجر مفتوح طوال الليل وأحمل حقيبة ممتلئة بأغراض البقالة.

هاللو؟ صِحتُ ووقفتُ هناك لوقت طويل في الغبش. كان بمقدوري رؤية الوهج الخافت لمصباح في غرفة المعيشة ربما أكون تركته مضاءً قبل مغادرتي. لم يجب أحد. تقدَّمتُ ببطء وهدوء إلى غرفة المعيشة حيث أعرف جيدًا أنه كان بانتظاري- الرجل الشاحب. لم يكن يرتدي معطفًا بقلنسوة ولا قُفَّازات. كان يجلس متمدِّدًا على الأرض، مرتديًا تيشرت أسود لفرقة موسيقية. لم يخبرني اسم الفرقة بشيء على الإطلاق، لكن أسفله، لمحتُ تواريخ من صيف 87.

تطلَّعَ إلى عينَيَّ، بوجه خالٍ من التعبيرات، أومأ برأسه برفق. كان قد وضع ثلاثة أشياء أمامه. على يساره باروكة كروية، وكأنها كرة

مُشعِرة. على يمينه، كانت هناك جَرَبنديَّة عجيبة الشكل من الجِلد، كما لو كانت بعمر قرونٍ طويلة، مُمزَّقة وبرائحة كريهة. أمامه مباشرةً كانت النبتة. تلك التي كنتُ وجدتها وراء التلفاز.

تيلاندسيا، أليس كذلك؟ قلتُ، وتساءلتُ كيف بحقِّ السماء نسيتُ هذا الاكتشاف، هذه النبتة الهوائية الغرائبية وراء تلفازي.

تظلُّ الحقيقة -وربما هذا هو الشيء الوحيد الذي تعلَّمته بحقٍّ من زماني على الأرض- أن الأشياء الجوهرية فحسب هي ما تتجاوزنا (هل لي أن أقول "نحن"؟)... لا. إنها تتجاوزني أنا. تظهر التفاصيل، أوضح ممَّا آمل، أمامي طوال اليوم، وصولًا إلى أصغر ذرَّاتها، لكنني أنسى الأشياء الجوهرية بسرعة الطلقة.

هل تتذكَّرينني، قال الرجل بهدوء. بدا صوته كأجنحة ترفرف وأجبته، نعم، أتذكَّر جيدًا عندما جاء لاستلام صناديقي. حينها، أردتُ أن أعرف مَن هو ولماذا كان مُهتمًّا بمسائلي الشخصية، مُقتحمًا منزلي وتاركًا وراءه أشياء قديمة في مواضع جديدة.

ظهرَ الخجل على مُحيَّاه ولم يَقُل شيئًا. كان دلف إلى المنزل مُجهدًا دون انتزاع حذائه، كتلة قذرة خلَّفَت وراءها خيطًا من الطمي. رفعَ كرة الشعر والجربنديَّة الجلدية وبدَّلَ بينهما عدَّة مرَّات، وكأنه يحاول استعراض خدعة سحرية. في كل مرَّة يرفع فيها هذه الأشياء، كنت أشعر بألم طفيف في معدتي، لكنني لم أَقُل شيئًا ولم أفعل شيئًا.

فاضَ الرجل كالماء وكان الأوان قد فات عندما وقعَ الأمر. لم أحاول حتى إيجاد تفسير. كنتُ كبيرة بما يكفي لأدرك أنه مع معظم الناس تغيب التفسيرات ولا حاجة بي لاستهلاك طاقتي للبحث عن شيء لا يوجد.

لم

اذا جاءت الشرطة للبحث عنك؟ سألته عوضًا عن ذلك، وتبدَّلَت تعبيرات وجهه بالكاد. أو أن وجهه ظلَّ متحجِّرًا كما هو، لكن رأسه ارتعش بشكل خافت فحسب.

كم عُمرك؟ سألته.

تسعة وخمسين، قال ذلك ثم تطلَّعَ في عينَيَّ مُجدَّدًا، وحينها فحسب رأيتُ شيئًا مألوفًا في عينيه. بينما ينهض واقفًا ويتَّخِذ خطوتين بطيئتين متراجعًا للخروج من غرفة المعيشة، لم أشِح بنظري حتى اختفى. لم أسمع الباب، لكنني أدركتُ أنه رحل بعيدًا.

كانت جدَّتي كبيرة صانعي باروكات الشعر، وعمَلَت في غرفة الخياطة في المسرح. كانت تجلس هناك في القبو، تغزل الشَّعر البشري طوال النهار، بتعبير مستغرق على وجهها. حقَّقَت لها تلك المهنة رضاءً كبيرًا، رغم أنها لم تجد بهجتها في المسرح. أحيانًا، كنَّا نذهب إلى الليلة الافتتاحية معًا، وحينها تقول جدَّتي إننا ذاهبون لرؤية باروكات الشَّعر.

طالما شعرتُ بعدم ارتياح بعض الشيء في المسرح. بدا لي من الغريب أن أرى أناسًا يتحرَّكون ويتحدَّثون بتلك الطريقة الأدائية. كالإمساك بشخصٍ وهو يكذب. حينها، كان يحدث كثيرًا أن أتأثَّر بالنص، وأن أسمع ما يقوله الممثلون- بل والشعور أنهم يتحدَّثون إليَّ.

بعد واحد من هذه العروض، وصفتُ تجربتي، وقالت جدَّتي إن هذه سِمة المسرحيات عالية المستوى- تُنسيكِ ذاتك.

فكِّري فحسب، قالت، هذا ما نتوق إليه دومًا نحن البشر- أن ننسى أنفسنا وندع أنفسنا تُنسى. هذه هي المسألة.

نسيان ماذا؟ سألتها.

من المؤلم بشكل مريع أن يكون المرء إنسانًا، فسَّرَت الجدَّة، وأحيانًا ما تكون الطريقة الوحيدة لتَحمُّل ذلك هي النسيان. أنسى نفسي في باروكات الشَّعر -إنها ذات جودة رفيعة- ألا تظنِّين أنها بدت جميلة الليلة؟ هل رأيتِ الوقار على جبين المُلازم؟

نعم، أجبتها، مُتذكِّرةً العُرف الذهبي- الأحمر على الشِّرِّير في المسرحية، كيف التمع وتماوجَ في أضواء خشبة المسرح المُبهجة.

نجحوا بالكاد في سداد رهونات المنزل قبل وفاة الجدِّ في حادثة. لو كان مات قبل بضعة أشهر، فإن أمَّكِ كانت ستُحجز في الأبرشية وتُرسل إلى دار رعاية الأطفال بالتبنِّي في الريف، كانت جدَّتي تقول أحيانًا، ودائمًا ما أصابني ذلك بالرجفة. الأبرشية. بدت كشيءٍ يسحق الأطفال بين أسنانه. كانت جدَّتي تخيط طوال النهار، طوال الليل: ملابس رجالية، أردية تعميد، مشغولات ذهبية مَخيطَة في أزياء قومية. كانت زخرفاتها المُبهرَجة في غاية الجمال على الجانب الداخلي من القماش لحدِّ اختلاط الأمر على مَن يراها. بذلك نجحت في الحفاظ على المنزل والجسد والروح معًا، كل هذا حتى لا تُحجز طفلتها في الأبرشية، حتى لو ماتت عائلتها بالكامل تقريبًا.

النساء في عائلتنا، كانت الجدَّة تقول أحيانًا، بمقدورهنَّ الانسلال في الحياة غير مرئيات، لكنهنَّ لا يتراجعن. ثم حصَلَت على وظيفة في المسرح. صنَعَت تلك الباروكات التي تتدلَّى في أرجاء البيت، الحقيقية لحدِّ أنها قد تكون فروات رؤوس جمعتها فحسب. كانت تعمل في المسرح خلال النهار، وفي الأمسيات تجلس في غرفة المعيشة بدبابيس بين شفتيها، تغزل خيوط الشعر الرفيعة لحدِّ أنها لا مرئية.

كان جدُّكِ أكثر رجال العالم جاذبيةً، وأكثرهم ظُرفًا، وأفضل رجل يمكنكِ التفكير فيه، قالت جدَّتي ذات مرة. كان يخونني ويحتسي كل

لحظة يقظة في حياته، لكنني كنت عاشقة له، ورأيت نفسي محظوظة بوجوده معي. إلى جانب أمِّكِ بالطبع.

ذات مرة، عندما كان ثملًا، سقطَ من نافذة- ليس من ارتفاع عالٍ، لكن بما يكفي لينكسر عنقه، وشعرتُ وكأني عنقي انكسر بدوره، قالت الجدَّة. كما لو أن كل الأوردة المؤدية إلى عقلي قد انقطعت، ولم أعُد أتذكَّر شيء. كنَّا بلا عون إلَّا من أمك البائسة.

ذات كريسماس، تدحرَجَت خارجةً من صندوق هدايا- كرة الشعر. كانت صنعت باروكة وخاطتها في كرة مطاطية، بحجم كرة بيسبول تقريبًا، لكنها أثقل وممتلئة بسائل. قلَّبتُها في يدَيَّ وارتعشتُ لا إراديًّا. كان شَعري.

ماذا يُفترض أن أفعل بهذه الكرة؟ سألتُ جدَّتي، لكنها ضحكت ضحكتها المبحوحة فحسب.

(22)

لا أعرف إن كان أيُّ إنسان قد اعتقد أن أبي كان الرجل الأكثر جاذبيةً في العالم. الاحتمال الأكبر أن أمي لم تفعل، بما أنها لم تكن تتحدَّث أو تفهم الإنجليزية. لكنني على يقين أنها كانت تراه في زيِّه الرسمي طويلًا للغاية في حذائه اللامع. بذلك النوع من الجاذبية الأجنبية التي يمكنك تعليبها وبيعها.

رغم ذلك، لا أعرف. لا أحد يعرف. ظنَّت جدَّتي أنها ستقول مَن هو أبي في نهاية المطاف، لكن حينها كانت ميِّتة ولم تترك شيئًا وراءها سوى رضيعةٍ مُنمنمة لا تعرف شيئًا. كانت جدَّتي في الخمسين من عمرها تقريبًا. تخيَّلَت أن أبي كان جنديًّا أمريكيًّا، تخيَّلَت رقصاتٍ وافتتانات وتداخُلات رأسيةً، لكن دائمًا كانت لديَّ شكوكي.

عاشت أمِّي مع جدَّتي. في غرفة النوم -التي أصبحت غرفتي- في الشقَّة التي بيعت في بداية هذه القصة. عمِلَت في متجر أزياء مع

جـدَّتي فـور أن بلغـت الثانيـة عـشرة. تخـلَّى عنهـا عشـيقها، وجَـدَت آخـر، وصـارت مُحطَّمـة بالكامـل.

انغمَسَت في الشراب قليلًا، كانت جدَّتي تقول أحيانًا.

كان جـدَّتي قَلِقَـة وأرادت مـن أمِّـي أن تنتقـل إلى الخدمـة في الريـف. رفَضَـت أمِّـي أن تسـتمع إليهـا تمامًـا. قالـت أُمِّـي إن الحيـاة بـلا أيِّ معنـى، لا تسـتحقُّ السـعي وراءهـا. قبـل أن تـدركي ذلـك، سـيكون لـديَّ خمسـة أطفـال مـن شـخص أَمقُتُـه، مـن شـخصٍ يمقتنـي، وحينهـا لـن أعـود موجـودة، قـال، حينهـا سـأصير ترسًـا في ماكينـة الخياطـة وسـأكرِّر نفـسي حتـى الأبديـة.

استغرَقَت في القراءة قليلًا، كانت جدَّتي تقول أحيانًا.

لاحَظَـت جـدَّتي التَّغـيُّر. كانتـا قريبتـين مـن بعضهـما، تقـول جـدَّتي كثـيرًا. شـعَرَت بجـلاءٍ أن أمِّـي لم تَعُـد هـي، لكنهـا لم تـدرك مـا يجـري حتـى أصبحـت أمـي في منتصـف حَملِهـا. ثـم رفَضَـت الخـروج مـن الفـراش.

كانـت صديقتـي فيـولا أكـثر فضـولًا بشـأن أبي منِّـي. أرادت أن تعـرف إذا كان لـدى جـدَّتي أيَّـة دلائـل.

هل كانت الأمُّ تذهب إلى حفلات راقصة مع الجنود؟

بلا شكٍّ.

هـل هنـاك حبَلَـت بي أمِّـي، في حفلـة راقصـة في كـوخ في نيسـن يغـصُّ بالجنـود أو في زقـاق مـع جنـدي؟ هـل كان أبي يرتـدي زيًّـا عسـكريًّا عندمـا اسـتقرَّت المُضغـة بإحـكام في جـدار رحمهـا، بعـد أن نخَـرَت لنفسـها

موضعًا؟ هل كان يرتدي حذاءً طويلًا- طويلًا إلى أيِّ حدٍّ، لامعًا إلى أيِّ حدٍّ؟ هل كان يحمل بندقية؟ هل كانت تنبعث منه رائحة الأماكن البعيدة، هل كانت رائحته مثل رائحة الزيت، وقماش الدينيم، ولوز القطن، والتِّبن الأسود، والمحرِّكات، والفواكه والرَّمِّ والكوكا، والجِمال؟

هل كانت رائحته مثل تلك المنبعثة من تحت السيارات؟ هل كانت ترى الأفلام تومض وراء عينيها، امرأة تهبط دَرَجًا طويلًا، برداء مصنوع خصيصًا لها، بلونٍ لا يعرفه أحد، مستعدةً للحفلة الراقصة؟ تدفَّق بالصُّدفة.

بغَضِّ النظر عمَّا إذا كان جنديًّا أم لا.

ماتت أمِّي بغتةً. كنتُ صغيرةً على أن أتذكَّرها. في مراهقتي، كثيرًا ما كنت أشاكس جدَّتي حتى أعرف كل شيء، لكن شعرتُ أن الأمر كان يُثقِلُ عليها. ذكَرَت الأقراص، الڤودكا، قالت إنني لم أكن مدركة لأي شيء.

بعد موت أمِّي، حاوَلَت جَدَّتي أن تجد أبي. سألَت عشيقاته وحبيباته السابقات، سقاة الحانات، الجنود. كان تمضي بصورة لأمِّي في محفظتها وتُخرِجُها كلَّما وجَدَت سببًا لذلك.

مع تقدُّمي في العمر وزيادة فضولي، أخبرَتني أن أحدًا لا يعرف مَن هو أبي. هو نفسه ليست لديه أي فكرة أنني موجودة، لكنه لو اكتشف الأمر ذات يوم؛ فسيبتهج كثيرًا بالطبع أن تكون لديه فتاة مطيعة مثلي.

أُشبِهُه. لم يَقُل أحدٌ ذلك، لكنني لا أشبه أمِّي أبدًا. يبدو وجهي كوجه رَجُلٍ لا يعرفه أحدٌ ولا يعرف أحدٌ ما صارَ إليه. وطريقتي هي طريقة رجُلٍ لا فكرة لديه أنني موجودة.

(23)

يحدث كثيرًا عندما تُصدر الشرطة تنبيهاتٍ عن المفقودين، أن تكون عن مراهقين يتصوَّر الناس أنه سيُعثر عليهم في حفلةٍ ما أو مُتسكِّعين في المدينة. في موضعٍ ما في رُكام مراهقين مفقودين آخرين يحاولون أن يكونوا أكثر فَقْدًا.

إذا كان الشخص المفقود أكبر سنًّا، فسترتاب أنه خطا إلى البحر أو ارتكب جريمةً أو قُتِلَ. أحيانًا ما ترى إعلانًا بعد بضعة أيام بظهوره مجدَّدًا، وأحيانًا لا يحدث.

كثيرًا ما فكَّرتُ في الاختفاء، لكن فقط حين أتأكَّد أن أحدهم سيلاحظ اختفائي. عندما كنتُ طفلة، كنت أخطِّط لهروبي. أتصوَّر أصابع عارية على طريق حصى متألِّق، وشعاعَ شَمسٍ لا ينتهي، وأُناسًا أخيارًا يمنحونني الحِساء والخبز ويسمحون لي بالنوم في سقيفة التِّبن لديهم.

عندما بلغتُ الشباب، كنتُ أتصوَّر غرفة في فندق رخيص في مدينة لا أفهم كلمة واحدة من لغتها. أتصوَّر زجاجات خمور وأناسًا يجيئون ويروحون. حياةً جديدة تبدأ بعيدًا عن هذه القديمة، صيرورة لأكون شخصًا آخر.

توجد طُرُق كثيرة للاختفاء. عندما أكون في أسوأ أحوالي، أفكِّر كيف يمكنني الاختفاء دون أن أترك أثرًا. لكن لا أريد أن ينتهي بي الأمر بأحدهم يتعثَّر في جُثَّتي في أطراف الغابة. أو بقارب تجديف في بحر مفتوح هائج وبلاغ عن طلقات نارية.

رغم ذلك، فإن أكثر الاختفاءات شيوعًا وبساطةً هي تلك التي تحدث داخل الإنسان. عندما تستولي الشخصية على عمل الروح وتستمرُّ قُدمًا، آليَّةً بالكامل، بمساعدة الجسد.

ربما لا يوجد سوى قلَّة من الناس لاحظوا غيابي عندما سافَرتُ إلى تايلاند، لكنني قابَلتُ مايك، الذي كان شخصًا مفقودًا هو نفسه- ليس لأنه كان مُفتَقدًا، بذاته، لكن لأنه كان مُضطرًّا للابتعاد.

أرجأتُ رحلتي إلى كوالالمبور، وذهبنا أنا ومايك لزيارة المعالم الشهيرة في بانكوك. في الأمسيات، كنَّا نأكل أطباق غرائبية احتلَّت في ذاكرتي موضعًا أكبر من مجرَّد الحشرات والقريدس والمكسرات والطعام المقلي الذي يؤكل بالأصابع. كنَّا نجلس صامتَين، متجاوريَن في العَبَّارة التي تُبحِر بين أجزاء مختلف من المدينة، وأغلق عينيَّ، أستشعر بالضبط موضع فخذه، وأين تستقرُّ يده، يختنق صدري بالرَّغبات.

ثم نعود إلى الفندق، وأحيانًا ما يدعوني إلى غرفته، لكن أغلب الأحيان نقول فحسب "ليلة طيبة". لم أكن أعرف ماذا ينبغي أن يكون الشيء الذي أتوق إليه. لم أستطع تخيُّله. هل كان أن أميل برأسي تجاهه بغتةً، انتظارًا لقُبلَة؟ أو أن أرتمي بين ذراعيه، وأنتظر الفرصة

هنـاك فحسـب؟ مـاذا لـو أبعـدني عنـه؟ لم أكـن متأكّـدةً أن بمقـدوري تحمُّـل ذلـك. وبالتـالي لم أفعـل أي شيء، ولا هـو بـدوره.

بعـد أن نفـترق، يمتلـئ رأسي بالأسـئلة. لم أفهـم مـاذا كان يريـد منِّـي واسـتغرقتُ في التفكـير في كل تفاعُلاتنـا واشـمئزازاتِنا حتـى أصبَحَـت كل تفصيلـة صغيـرة، كل توقُّـف بـين الكلـمات، كل زلَّـة لسـان، كاشـفةً وذات مغـزى. صرتُ مُشوَّشـة. أبـدًا لم أعـرف حـيرةً كتلـك التـي عرفتهـا وأنـا بصحبـة مايـك. حتـى المـرأة التـي في المـرآة بـدت متحوِّلـةً. تعبيراتهـا كـما لـو كانـت لامـرأة عـلى وشـك الوصـول لـذروة الانتشـاء الجنـسي. مثـيرة للشـفقة.

هـل كان يعلـم، يتـوق؟ في مـاذا كان يرغـب، إلى مـاذا كان يتـوق مايـك؟ المـرأة ذات تعبـير الأورجـازم عـلى وجههـا تسـأل دائمًـا. شيء مُخـزٍ ومُميـتٌ جـدًّا. لـو كان كل هـذا قـد حـدث بعـد ظهـور الإنترنـت، لاسـتطعتُ كتابـة اسـمه ومعرفـة مـا يريـده بالضبـط، لكـن لم يكـن هنـاك إنترنـت. لا شيء سـوى بريـد عـادي وصحـف يوميـة -غـير مفهومـة- بالتايلانديـة، وأخـرى بالإنجليزيـة، تُبـاع في مكتبـاتٍ بعينهـا لم أرتَدْهـا قـطُّ...

بالتـالي لم أفعـل سـوى أن جلسـتُ في غرفتـي، أقتـل البعـوض وأطرطـش دمـاءه عـل الحائـط، وأتسـاءل.

ماذا يريد؟

ليس أنا.

باستثناء ربما أجزاء مقطوعة منِّي.

إذا أحبَّ ذلك.

في أحـد الأيـام، لم أره عـلى الإفطـار كالعـادة. في الليلـة الفائتـة، قـال لي إنـه مُرهـقٌ، ولم نخـرج كـما خطَّطنـا. ذهبـتُ إلى غرفتـه وطرقـتُ عـلى

الباب. سمعتُ أحدهم يتحرّك، لكنَّ أحدًا لم يخطُ إلى الباب. كانت هناك سحليَّة تعيش في الرَّدهة حدَّقتُ فيها، مصعوقةً. حَلقُها منتفخ، بالونة حمراء برَّاقة بَدَت على وشك الانفجار، ثم ارتدت راجعةً إلى حلقها مجددًا.

كان عليَّ أن أُظهر لمايك كل شيء. في ماذا كنتُ أفكِّر؟ طرقتُ مُجدَّدًا. لستُ معتادة على الاقتراب كثيرًا من الآخرين. ما أزال غير متيقِّنة تمامًا من القواعد. فتحَ الباب بعنف بغتةً. كانت عيناه بارزتين على نحوٍ عجيب وصاح بشيءٍ ما. لم أتبيَّن شيئًا مما قاله، تجمَّدتُ. صفع الباب بقوَّة في وجهي.

هل كان هناك أحدٌ في غرفته؟ لستُ متأكِّدة، ومع ذلك، شعرتُ أنني لمحتُ شيئًا يتحرّك. ظِلًّا مُستثَارًا.

أحيانًا ما يسعى الناس إلى صُحبتي. أناسٌ يريدون أن يكونوا رفقائي، بل وحتى أصدقائي، ومع مرور الوقت، لاحظتُ شيئًا. هؤلاء الناس لديهم شيء مشترك.

كان لديَّ رفيق من تلك الشخصيات النمطية.

أبدًا لم يكن الرجل صاحب تلك الشخصية النمطية يصل خاوي اليدين. يرغب دائمًا في إثقالي بالهدايا. لاحقًا، أكتشف دائمًا أن شيئًا ما ليس على ما يرام في الهدايا. إذا كانت الهدية شيئًا يؤكل، فقد انتهت صلاحيته، إذا كانت رداءً، فهو غير مناسب على الإطلاق. كان هذا ينتهي عادةً بتخليص نفسي من عبء تلك الهدايا: إلقاء الطعام في سلَّة القمامة، أو أخذ الملابس إلى سلَّة التبرُّعات، وهو ما ينتهي دائمًا إلى مشاجرة مُرهِقَة.

فـور أن يقـدِّم هديتـه، يرغـب في فنجـان قهـوة والجلـوس عـلى إفطاري يسـتدفئ ويتحـدَّث. يتحـدَّث بـلا توقُّـف ليلتقـط أنفاسـه ويخـبرني بأكـثر مـمَّا أهتـمُّ بمعرفتـه. يتحـدَّث عـن نفسـه وعـن النـاس في حياتـه، وأبـدًا لا أصـدِّق كلمـةً واحـدة مـمَّا يقـول. هنـاك شيء غريـب في الطريقـة التـي تنظـر بهـا الشـخصية النمطيـة شـزرًا وتكـذب بشـأن أكـثر الأشـياء ابتـذالًا. انبعـاجٌ مـا في شـكل فمـه.

تجـد الشـخصيات النمطيـة تلـك نفسـها في الوحـل والخـراء ولا تتحمَّـل أي مسـؤولية تجـاه ذلـك. يعاملهـا النـاس بشـكل سـيِّئ للغايـة لحـدٍّ كـما لـو أن العـالم الـذي تعيـش فيـه تلـك الشـخصيات قـد تشـكَّلَ في الظـلام. وعندمـا تغـادر أخـيرًا، تأخـذ معهـا شـيئًا لم أمنحـه بـإرادتي، لكنـه شيء غـير مـرئي وغـير قابـل للاسـترجاع.

النسـاء والرجـال الـذي يدخلـون حيـاتي ويضغطـون براحاتهـم عـلى ظهـري وسـط قَفَزاتهـم في حيـوات الآخريـن.

أصمتُ.

يثرثرون.

أُنهَك.

يأكلون.

كل القصـص التـي حُكيَـت لي. كل الأسرار التـي اؤتَمَنـتُ عليهـا. كل الهدايـا التـي منحـت لي. أبـدًا لم أرغـب في معرفـة الشـخصيات النمطيـة.

ظهَـرَت تلـك الشـخصية النمطيـة لتوِّهـا ثـم غـادرت في النهايـة. وفي الأثنـاء، كان النـاس الذيـن أودُّ معرفتهـم حقًّـا بعيديـن جـدًّا عـن يـدَيَّ.

ليس الأمر دراميًّا جدًّا بالطبع، وهناك بالطبع استثناءات. مثل فيولا، التي كانت لديها شقيق. ظللنا أنا وهي على اتصال حتى موتها، الذي كان صادمًا. أحيانًا ما أُبسِّط الأشياء في سبيل حَكْيِ القصة.

دائمًا ما أجفل تجاه افتراض أن الناس يقولون أكاذيبَ. لا أنسى الخيانات، أتجنَّب الحميمية، ولا أسمح لنفسي بأيَّة أوهام، التي تُمثِّل -بالطبع- أساسَ كل العلاقات.

حتى بدأتُ في معرفة مايك. أبدًا لم يَحكِ لي شيئًا عن نفسه، ومع ذلك، سعى إلى صحبتي. لم يسألني عن أي شيء كذلك، وربما هذا الصمت بالضبط هو ما قادني إلى أن آتَمِنَه على أشياء كثيرة لم أعتَدْ على التصريح بها.

كقصَّة الحصان الزجاجي.

(24)

كانت لدى فيولا أمٌّ تعمل وأبٌ كثيرًا ما يكون في مزاج جيِّد وشقيق يتغزَّل فيَّ كلما زرتُ منزلهم. رأيته لطيفًا. كان لديها عشرات من أبناء عمومتا يزورونها دومًا دون الاتصال مُسبقًا. دائمًا ما كان باب المنزل غير مقفل، وعندما ذهبتُ إلى منزلها ذات يوم بعد العشاء، جلسنا في غرفة المعيشة مع أمِّها وأبيها، اللذين كانا يتحدَّثان معي كما لو كنتُ إنسانة بالغة.

كنَّا أنا وفيولا في نفس الصف الدراسية في عامنا الأول في المدرسة الثانوية، واعتادت أمُّها القول إنه ينبغي لنا التركيز على دراستنا وعدم ملاحقة زوج المستقبل. سألاني ماذا أريد أن أعمل، وقلتُ إنني لستُ متأكِّدة إن كان التعليم العالي يناسبني. كان جدَّتي متحمِّسة جدًّا لهذا، قالت إن هذا ما كانت أمِّي لتريده، لكنني لم أكن متأكِّدةً. كنتُ ضَجِرَة.

لم يكن ردُّ فِعلهما أن يحُثَّاني على إنجاز أشياء عظيمة، بل حاولا معرفة ما أريد فعله حقًّا. ما هي اهتماماتي. جعلني هذا واعيةً بذاتي- كنتُ أخشى قول شيء غبي أو أن شيئًا يقبع بين أسناني أو يتدلَّى من أنفي، أو أن رائحتي كريهة.

تعتقد فيولا أن والديها مُحافظان. عندما يحكي أبوها مَزحاتٍ، تشيح بنظرها خلسةً، وعندما تنتقد أمُّها ملابسَها، تشتكي بمرارة. تقول إن أمَّها انتقاديَّةٌ جدًّا، تدعو أباها بالأحمق. أردتُ أن أكون شقيقتها، ابنتهما، أو بالأحرى: هي. أبدًا لن أُشيح بنظري أو أشتكي.

سأضحك بابتهاجٍ على مَزحاته، سأنتبه إلى تعليقاته. سأرتدي ملابسي بالطريقة التي تريدها الأمُّ. لن أغفل عن نفسي أبدًا.

هذا ما كنتُ أفكِّر فيه على أيِّ حال. كان شقيقها يكبرني ببضعة أعوام. لديه وظيفة في مكان ما. لم تكن فيولا مُغرَمة بشقيقها أيضًا، ومتى سألتُها بشأنه، سرعان ما تحيد عن الموضوع. بالتأكيد لم أكن أوَّلَ صديقة لها تُبدي إعجابها بشقيقها. كان الأمر هكذا. لكنني ربما كنتُ أوَّلَ من يُبدي إعجابه بالأسرة بأكملها. تُقتُ لأن يتبنَّوني. كلَّما زرتُ منزلهم، لا أرغب في مغادرته. أرتشف كل التفاصيل، كل الروائح. حُليَّهم الرخيصة، عناوين كتبهم، حالة نباتاتهم، كل شيء.

عندما أفكِّر في الأمر الآن، أتيقَّن أن والِدَيْ فيولا شعرا بالأسف من أجلي. حينها، لم أدرك تمامًا أنني كنتُ مثقلة بالحزن. في مجتمعنا الصغير، انتشرت قصص مأساوية، وانتهت إلى يتيمة تعيش مع جدَّتها العزباء غريبة الأطوار. من المحتمل أن آباء كل الأطفال الذين لعبتُ معهم شعروا بالأسف من أجلي. ربما لم أرَ أي فارق. لكن في منزل فيولا، وصلَ إحساسي بالهُجران إلى مستوى جديد، وأحيانًا ما كنت أخشى أن أقول شيئًا عَرَضًا، أن يزلَّ لساني وأقول بلا تفكير:

يمكنكم أخذي.

كنتُ بالطبع كبيرة على أن أتصرَّف هكذا. في عمر السادسة عشرة ويُفترض أن أطارد الفتيان وأفكِّر بشأن طول أو ضيق جونلاتي أو ما يقوله أحدهم إلى آخر بشأن شيءٍ ما. لكن تلك التفاهات مبنية على أساس راسخ أفتقده تمامًا. كانت جدَّتي تزداد غرابةً كل يوم. ارتبتُ أن أمرًا خطيرًا يحدث، لكنني لم أستطع الاستمرار في هذه الأفكار حتى نهايتها.

كانت فيولا مُعجبة بصديق شقيقها، الذي يعمل في تفريغ الأسماك في الميناء، وطوله متران تقريبًا. بغتةً، صرنا نجتمع مع شقيقها وصديقه في العطلات الأسبوعية. يدعواننا إلى حفلة وتبدأ فيولا في تقبيل الرجل الطويل، وينظر شقيقها إليَّ بفضول، كما لو كان يحاول استكشاف إن كنتُ أستحقُّ المحاولة. كنتُ توَّاقة لتقبيل أسرته، وتقبيله بالتبعية.

ثم ذهبَ والداه ذات يومٍ إلى كوخٍ صَيفيٍّ مع بعض الأصدقاء، وظلَّ الشقيقان بمفردهما في المنزل. حينها احتسيتُ الشَّرابَ لأول وآخر مرَّة، وبعد بضعة أسابيع، بدأت الآلام الفظيعة.

كتقلُّصات الدورة الشهرية، لكن أسوأ كثيرًا. لو كانت الأمور تجري بشكل طبيعي على الإطلاق، كنت سأشتكي، لكنني لم أقُل شيئًا. أحمل ذكرى غريبة عن الوقوف في متجر أسماك. واحدة من صديقات جدَّتي تسألني عن أحوالنا، كيف تمضي الأمور، وبالكاد أفهم كلمة ممَّا تقوله لأن تركيزي كله مشغولٌ بالحفاظ على تماسُكي. وجهي على حافة الانزلاق إلى امتعاضَةِ ألَمٍ، والعَرَقُ ينساب على صدغي في محاولتي ألَّا أنهار.

تبدينَ شاحبة قليلة، قالت المرأة، وقلتُ "وداعًا". بعد بضعة أيَّام، غبتُ عن الوعي في غرفة نومي. نُقِلتُ إلى المستشفى، بالمضادات الحيوية، والمورفين يجري عبر أوردتي. كان هناك حصان زجاجي على

المنضدة بجوار الفراش. لم أره من قبل. هناك أيضًا باقة زهور، أعشاب جُرَيسْ تعرَّفتُ فيها على تلك التي في حديقة بيتنا.

جاء الطبيب. طويل ومتراخٍ، لكن مخيف المظهر بسوالف كثيفة وعينين صغيرتَيْن، ودودتَين. سألني كيف أشعر. أتذكَّر أن بصحبته كانت ممرِّضة، في عُمرٍ عجوز. بدا لي أنها تحمل تعبيرًا مُجهَدًا، بفعل الضجر وليس صدمة الخجل. لا أتذكَّر جيدًا مع ذلك. ما تزال عويناتها ذات الحوافِّ القَرْنيَّة واضحةً جدًّا في عقلي. العقل يُقرِّر ما يراه مُهمًّا.

يبدو الحصان الزجاجي ضئيلًا في يدَيْ الطبيب. أظافره مقصوصة بالتساوي، مُصفرَّة من التدخين، وأصابعه ممتلئة. يعبث بالحصان ويحاول تجسيد شيئًا ما بالكلمات لكن يبدو عاجزًا عن إيجاد الكلمات المناسبة.

هل تتذكَّرين هذا الحصان؟ سأل أخيرًا بحذر، وهزَزتُ رأسي.

وجدناه في مَهبَلِكِ، قال وأشاح بوجهه.

لا أفهم ما يقوله. أول ما خطرَ على بالي هو أن الحصان الزجاجي ظهرَ إلى الوجود في مَهبَلي.

ماذا؟ أقول أخيرًا وأتذكَّر الحوافَّ القَرْنيَّة، لكن ليس ما إذا كان أحدهم قد وضعه يده على يدي. ربما لا.

هل لديكِ أيُّ فكرةٍ كيف وصل إلى هناك؟ سألني الطبيب، وبغتةً، تذكَّرتُ الحصان. تذكَّرتُ أرفف الحُليِّ الرخيصة في منزل صديقتي فيولا ومجموعة أمِّها من الحيوانات الصغيرة الزجاجية. أتذكَّر الحصان على واحد من تلك الأرفف.

أهـزُّ رأسي. أريـد أن أتحـدَّث عـن الألم، عـمَّا يُضَـخُّ في أوردتي، لكـن فمـي يـأبى أن ينفتـح.

انتـشَرَت العـدوى إلى رَحِمـك، لكـن سـنعطيكِ البنسـلين والمورفـين لتخفيـف الألم، يقـول الطبيـب.

هـل كنـتِ نَشِـطَةً جنسـيًّا لفـترة طويـلًا؟ سـألني حينهـا، متطلِّعًـا إلى أوراقـه.

لا، أجبته.

أبدًا لم أكن.

ظنَّ أنني أكذب.

أنصـتَ مايـكل. لم أكـن أتوقَّـع أيَّ ردٍّ فِعـل مُعـيَّن. راودَني فحسـب شـعور عجيـب لوهلـة. لم أشـعر بـأي نـوع مـن الارتيـاح في التحـدُّث عـن الأمـر، ليـس كانتـزاع سـدادة مـن زجاجـة أو حصـان مـن مهبـل.

في أمريـكا، التحقـتُ ذات مـرة بوظيفـة صغـيرة في مزرعـة في غابـات الجنـوب، قـال مايـك، وهنـاك قابلـتُ مُزارِعًـا حـكى لي أن الأشـجار تسـتخدم جذورهـا للتحـدُّث إلى بعضهـا البعـض. عندمـا تشـعر بتهديـدٍ، تُحـذِّر بعضهـا البعـض.

لكنها لا تستطيع الهروب... قاطَعتُه.

لكنهـا تطلـق البـذور، فـسَّرَ مايـك، لكننـي لم أفهـم مـا يتحـدَّث عنـه. فهمـتُ أن بقـاء النـوع هـو أولويـة مطلقـة لجميـع الأشـياء الحَيَّـة لكـن لم أعـرف لمـاذا اعتَقَـدَ أن تلـك القصـة قـد تنطبـق عـليَّ. اعتدلـتُ في الفـراش، طوَّحـتُ بقدمَـيَّ عـلى الحافـة، ولمحـتُ خصلـة شـعر في زاويـة الغرفـة.

توجد أنواع كثيرة من الصدمات النفسية. تلك الصدمة كانت -من نواحٍ كثيرة- من النوع الأقوى تأثيرًا، لكن كيف لي أن أفسِّرها؟ الأمر مُعقَّد. لماذا رأيتُ خصلة الشعر تلك في نفس اللحظة التي انكشَفَت فيها ذاتي للمرة الأولى على ما حدث لي كمراهقة؟ لماذا لم أقُل شيئًا؟ لم أقُل شيئًا فيما كان الزجاج يتمدَّد، ساخِنًا في البداية، ثم صُلبًا، باردًا، رفيعًا كورقة، ومكسورًا في نهاية المطاف.

لكن لا دور لي في هذه الصدمة النفسية. هذه الصدمة تنتمي إلى المرأة صاحبة ذلك الشَّعر. لكل إنسان وقع في غرام المرأة صاحبة ذلك الشَّعر.

كانت هناك ألواح في الأرضية. بيضاء ولامعة. السرير في منتصف الغرفة، وعلى كلٍّ من جانبيه كومود من خشب السنديان المُقلَّد بأقدام أُسود. كانت خَصلَة الشَّعر تحت أحدهما- طويلة، سوداء، ملتصقة بقطعة جلد صغيرة.

من المُريع جدًّا أن يحدث هذا لكِ، قال لي مايك، مُتمدِّدًا على الفراش.

هل تودِّين أن أحضنك؟ سألني، وهو ما الضبط ما أردتُ سماعه أكثر من أي شيء في العالم.

لا أشعر أنني على ما يرام، قلت أخيرًا مُتلعثمةً. استهلك الأمر منِّي الكثير لأتذكَّر ذلك، أضفتُ مُفسِّرةً، بينما أخرج من الغُرَف بأبطأ ما يمكنني. كان قلبي يخفق بقوة ودمائي تغلي. إلى هذا اليوم، ما زلتُ أعاني عند رؤية هذا النوع من الألواح. ألواح كبيرة، لامعة، بيضاء كالثلج. تُذكِّرني أسنان بعض الناس بهذه الألواح. أضطرب عند رؤية

أناسٍ بهذا النوع من الأسنان. إنها فقط مسألة متى سيرى خَصلَة الشَّعر التي لم يلحظها حتمًا.

بعد بضعة أيام، وقعت حادثة في بانكوك. انفجار غاز على طريق نيو بيتشبوري. ماتَ تسعون شخصًا، وأصيب أربعون. حينها رأيتُ صورته في الجريدة. حروف تايلاندية غير مفهومة تحيط بها. ذهبتُ إلى مكتبة واشتريت أحدث الجرائد الصادرة من أمريكا، لكن لم يكن فيها شيء. لم تَصِل الأخبار إلى هناك على الفور. اضطررتُ إلى الانتظار بضعة أيام، وفي تلك الأثناء، داوَمتُ على النظر إلى وجه مايك بين الحروف. عيناه مغلقتان، عيناه ميتتان، خطوط قياس طول سوداء على الحائط الأبيض وراءه. صورة وجوه الموقوفين على الأسلوب الأمريكي لكن دون الصورة الجانبية. تُقتُ لرؤية صورته الجانبية. جانب وجهه بينما يستلقي ويبتسم، ثنايا خدَّيْه، انحناءة أنفه. تُقتُ لدفئه، رائحته.

كان «رأس صيَّاد الرؤوس» هو عنوان المقال الذي عثرت عليه في النهاية في صحيفة مُصغَّرة. كان مصحوبًا بصورة أخرى لمايك، كان شابًّا فيها. شعره مسترسل للوراء وطيَّات زِيِّه لامعة. تعبيرات وجه منطلقة، بريئة. كان وسيمًا، ما زلت أعتقد ذلك، عندما أتذكَّره. ما زلتُ أتوق إلى شيءٍ لا يمكنني تحديده بالضبط عندما أفكِّر في مايك.

> كان مايكل هوارد يعمل كأمين سجلَّات في أرشيف نورث كارولينا الوطني. كان انطوائيًّا ورزينًا ولديه حفنة من الأصدقاء. قبل بضعة أشهر، عُثِرَ على رأس امرأة في مستودع تمَّ استئجاره تحت اسم مستعار. تتبَّعَت الشرطة أثر الأدِلَّة وصولًا إلى السيد هوارد، الذي أنكر

الجريمة تمامًا. لم ينقضِ وقت طويل قبل أن يختفي تمامًا... عثرت الشرطة على رأسٍ ثانٍ، لكنه هذه المرة مشنوق في العراء. تشترك المرأتان في أشياء كثيرة: شكل الجسد، لون الشعر، العمر. كلتاهما كانتا في العشرين من العمر تقريبًا. أصدر الإنتربول مُذكِّرةً للقبض على مايكل هوارد. كان الأمر كما لو أنه لم يوجد قطُّ. في شقَّته كان الوضع مُجرَّدًا ومُبهمًا للغاية، لحدٍّ أنها لم تُفِدْ المحقِّقين في الوصول إلى أيَّة نظريات حول المكان الذي رحل إليه... ثم وقع انفجار غاز على طريق نيو بيتشبوري في بانكوك وعُثِرَ على رأسه، سليمًا تمامًا. تعرَّفَت عليه السُّلطات باستخدام سجلَّات الأسنان، وهكذا كانت نهاية صيَّاد الرؤوس.

(25)

تباطأ الزمن، لحدٍّ أن تقعَّرَت الأصوات كلُّها. شمس أبريل تسطع عبر النوافذ، وبإمكاني تخيُّل شقَّتي، ذرَّات الغبار تومض في الهواء. ستموت أشيائي معي. بدوني، هي أجسام دخيلة، غير مألوفة. لن يتناول أحدٌ هذا الإبريق الباهت ذا زخرفات الزهور ويفكِّر فيَّ.

سيأتي موظفون مدنيون مجهولون ويكوِّمون أشيائي في سلَّة مهملات، ومن هناك سيأخذونها إلى مخزن التبرُّعات. ستتفرَّق بين منازل أناسٍ لا فكرة لديهم عنِّي أو عن الحياة التي عِشتُها مع إبريقي، مفرش منضدتي، طبقي، شوكتي، معلقتي، وعائي.

كتب. حُليٌّ رخيصةٌ من الشرق الأقصى. ستائر مشبَّعة برائحة التبغ. مِنفضات سجائر من زجاج ملوَّن. سِلال من سعف النخيل. أوانٍ، قلَّايات، أُصص زهور، وعلب قصديرية مُنبعجة.

لطخة من روحي حتمًا ستظلُّ داخل كل شيء من هذه الأشياء. لا يمكن أن تكون فحسب أشياءَ جامدةً. ستمضي هذه اللَّطخات إلى مخزن التبرُّعات، ستذهب إلى البيت مع أُناسٍ. أُناسٌ سيحتسونها حينها من أكوابي ويبولونها في مباول مراحيضهم. ستُغسل مع الأطباق ثم تُصرف عبر المجارير. لَطَخاتٌ حيَّة جدًّا، حقيقيَّة جدًّا. هي لَطَخات ذاتي على الأرض بعد موتي. أولًا في أحشاء الناس ثم في أنابيب مجاريرهم.

كانت أغطية فراشي قد اهترأت. مهلهلةً وباليةً من كثرة الاستخدام. كثيرًا ما أوشكتُ على الذهاب إلى المتجر لشراء طقم جديد، لكنني أتراجع في البداية، ثم أجد المشهد أكثر كآبةً قليلًا من الضوء في هناجر الطائرات تلك التي تبيع فُرُش الأسِرَّة. الضوء الساطع، السقف الشاهق، جحافل الناس، ورائحة البلاستيك. تُذكِّرني بمكبَّات القمامة، الممتلئة بهذه الخردة التي تمَّ شراؤها باسم التوفير ثم لم تُستخدم أكثر من مرَّتَيْن.

قُدتُ إلى ضواحي البلدة، إلى واحدة من تلك المتاجر الهائلة التي يمكن العثور فيها على كل تلك الأشياء المتنوِّعة. مئات من الألحفة للاختيار منها. أردتُ أن أنام تحت واحدٍ جديد يُحفحف. كانت الزخرفات مبهرجة، بشعة، مثيرة للغثيان. فرقعات مُصمِّم مُبتذَل، فجٌّ. في النهاية، وجدت بيَّاضات كتَّان أغلى من الأخرى مرَّتَيْن. خَشِنَة، بلون البيج، ملائمة.

كان المتجر كالمتاهة- ممرَّات مُصَمَّمة بحيث لا يفلت من نظرك أي إغواء. وصلتُ أخيرًا إلى المطعم، وقرَّرتُ طلب كوب قهوة وساندوتش سَلْمون مُدخَّن مفتوح قبل العودة إلى المنزل.

أمامي في الطابور كانت هناك امرأة تُولِيني ظهرها. شعرها ذهبي ورطب وتشعُّ منه رائحة الشامبو، كان معها صبيَّان صغيران يشيران

بأصابعهما ويتأفَّفان. نظَرَت إليَّ وانفجرت ابتسامةٌ مُتحمِّسة على وجهها.

إلين! قالت، مُحتضنةً إيَّاي. كان ينبغي أن نتقاسم السيارة، أضافة بضحكةٍ. هل وجَدتِ بيَّاضاتِك؟ سألتني، لكنني لم أستطع تذكُّرها. كيف عَلِمَت أنني أشتري بيَّاضات؟ لا يمكن أن تكون رأت ما أحمله في الكيس الأصفر الذي أستخدمه كسلة تسوُّق.

ألا تتذكَّرينني؟ سألتني، وحدَّقتُ في وجهها. هذا أنا، هيلين... همَسَت، واختَفَت ابتسامتها. اعتصَرَت كتفي، هزَّتني قليلًا، كما لو كان لمنحي دعمها، والشيء التالي الذي أتذكَّره، اعتناؤها بصبيَّيْها، تطلب لهما كُرات اللحم وتخبرهما أنهما لن يتناولا الصودا، تطلق بعض النِّكات، تنظر إليَّ، تضحك. بشكل اعتذاريٍّ، حزين.

مَن هي؟

كيف كانت تعرف ما أحتاجه؟

لماذا كانت حزينة؟

استلقى الساندويتش المفتوح في المُبرِّد وتطلَّعتُ إلى الزينة عليه: حلقات من الفلفل الأخضر وحشو بقدونس. السَّلْمون الوردي. شعرتُ بالغثيان. تمنَّيتُ ألَّا آكُلَ أبدًا. مجرد فكرة دخول الطعام إلى جسدي وخروجه مجدَّدًا. بدا ذلك مُرهقًا للغاية.

لكي أخرج من المتجر، اضطررتُ إلى أسلك طريقي عبر المتاهة بأكملها مجدَّدًا، لكن عندما وصلت إلى البداية، وجدتُ نفسي أعود عبر نفس الطريق الذي جئت منه. حاولتُ أن أبقى هادئة، سرتُ عبر غُرَف المعيشة، والمراحيض، والمطابخ، وانتظرت في الطابور عند ماكينة الدفع.

لم أختفِ، بل ازددتُ حجمًا في هذا المساحة الهائلة، المُتجرِّدة. كانت الوجوه تتلوَّى في عقلي، وتختلط مع وجهي غائمةً. أن تفقد عقلك، ثم تتداعى، ثم تُصاب بانهيار عصبي- هذه هي مزايا مَن عشقوا آخرين. انتظرتُ في الطابور ودفعت ثمن غطاء الفراش الذي أنتوي الموت عليه. قُدتُ إلى البيت في الضوء المعتم لآخر النهار.

(26)

عـادت الصناديـق إلى غرفـة المعيشـة. لم أرَ الرجـل الشـاحب في أيِّ مـكان. جلبـتُ مَقصًّـا وقطعـتُ الشريـط.

إلين، أوراق

في البدايـة، كنـتُ أكتـب في دفاتـر رخيصـة بأسـلاك لولبيـة. عندمـا بلغـتُ السادسـة عـشرة، أعطتنـي جـدَّتي دفـترًا جميـلًا بملائكـة عـلى غلافـه. صرتُ أكتـب كل شيء بقلـم حـبر سـائل. الحـبر، الأزرق الفاتـح. لَطخـات الدمـوع عـلى الحـواف. الحـروف مُلتفَّـة ومُتعجِّلـة.

صنَعَت الجَدَّةُ باروكة لا يمكنكِ ارتداؤها على رأسك.

(...)

وصلتُ إلى البيت عند منتصف الليل ووجدت شمعةً تحترق فوق المنضدة.

(...)

قالت إنها تعرف بالضبط ما أخطِّط له.

(...)

أنا خائفة.

(...)

لا تعرف إن كان الوقت نهارًا أم ليلًا.

(...)

وجهي قالب ممتلئ بخرسانة مُتيبِّسة.

(...)

لا أحد يزور أو يتَّصِل.

(...)

أخشى تركها بمفردها عندما أذهب إلى المدرسة.

قلَّبتُ صفحات الدفتر. قرأت جُمَلًا متناثرة في مواضع مختلفة. بشكلٍ ما، طالما تخيَّلتُ أنني سأتحوَّل إلى نسخة من جدَّتي. أن عقلي سيُفرِغُ نفسه حتى لا يَعود قادرًا على إصدار أوامره إلى جسدي. كان ذلك التصوُّر يُرعبني كلما قلت لها "وداعًا". أرعبتني الفكرة كثيرًا لحدِّ أنني لم أُكملها. صاحبَتني مُغفَّلَة، شكَّلَتني، وجَدَت قناةً عبري. الخوف من فقدان عقلي.

أعرف بالضبط مصير النساء أمثالي. نسير عبر الشوارع بأكياس بلاستيكية تصطدم بأقدام ذوات جوارب من الصوف، نغمغم لأنفسنا بمحادثة لا تنتهي، ونتوقَّف عند مداخل الأبواب، جراجات السيارات، عند الشبكات الحديدية، نضع عظامنا المُرهَقة في المكتبة حتى يطردنها أحدهم.

نحن.

سيُلقي بي خارجًا لأنني لا أستحمُّ أبدًا، لأنني لم أعُد أعرف كيف يعمل الماء. ذلك أنه يزعجني بشكلٍ لا يمكن تفسيره وبلا بمعنى على الإطلاق أن تُهيِّجُ قطرات الماء جلدي.

ألا يوجد شيء يمكن فعله لمساعدة تلك المرأة؟ يهمس الناس لبعضهم البعض. هذا ما تريده، يقول آخرون مرتبكين، ولا أحد يساعد المرأة. لم يكن أحد يعرفها جيدًا قبل أن تصاب بالمرض ليدرك أنها لا ترغب في النوم على شبكة حديدية.

> عندما وصلتُ إلى المنزل، كانت الجدَّةُ مرعوبةً. قالت إنها رأت أناسًا في غرفة المعيشة، أناسًا ضئيلين جدًّا يرتدون ملابس بألوان مبهرجة. قالت إنهم يعيشون في الزاوية وراء الأريكة، وأنه ينبغي أن ألقي نظرةً إذا لم أكن رأيتهم من قبل. يتحرّكون بسرعة كبيرة، قالت، ينزلقون ويصلصلون كعملاتٍ فضِّيَّة على كريستالة. سألتها ربما كانوا فئرانًا فحسب، لكنها قالت إنهم يرتدون ملابس مخمليَّة أرجوانيَّة ولديهم شعر ذهبي ويحتسون شرابهم من طقم خزفي مُنمنَم بأصابعهم الضئيلة منحنيةً في الهواء. لم أرَ شيئًا وراء الأريكة سوى غبار وأوساخ.
>
> *(...)*
>
> تطلَّعَت عبر النافذة وقالت إن الحملان قد وصَلَت. كانت تستلقي في الخارج مع الأطفال، تحيطهم جميعًا هالة.
>
> هالة إلهية.

(27)

عندما بلَغَت السادسة عشرة من عمرها، توقَّفَت إلن عن المشاركة في مسابقة الشِّعر التي سُمِّيَت على اسم أبيها. توقَّفَت أيضًا عن كتابة الشِّعر وركَّزَت انتباهها على رغبة جديدة لتتفوَّق في المدرسة. عَمِلَت في وظيفة في الأمسيات والعطلات الأسبوعية تبيع الاشتراكات في مجلة علمية على الهاتف، اشترت لنفسها زوجًا جديدًا من الأحذية وشنطة ظهر للكتب المدرسية، وحصلت على جهاز كمبيوتر ستدفع ثمنه على الأقساط بقرض طُلَّابي.

صارت تَحضِرُ مُحاضراتِها بوجهٍ باردٍ وخاوٍ، لكنه يرتعش في أسفله خشيةَ إفساد شيء، أو إساءة فهمه، أو ارتكاب أخطاء في مادة الحساب، أو قول شيءٍ خاطئ، أو إحراج نفسها. كانت تتحدَّث بأقل قدر ممكن وتتجنَّب حفنة التلاميذ الذين تعرفهم من المدرسة الابتدائية. أرادت أن تكون لها حياتها خالصةً، غير ملوَّثة بكل تلك الغرابة التي أحاطت بها طويلًا منذ بدايات عمرها.

في مادَّة الأدب، كانت تقرأ مع الصَّفِّ رواية أبيها الأولى. قصَّةً كتبها عندما كان في العشرين من عمره تقريبًا وحقَّقَت نجاحًا هائلًا. تدور حول رجل عجوز يعتني بأبيه المُتقادم في العمر. كانت هذه السرديَّة متداخِلةً مع سَرديَّة أمٍّ وابنة تستأجر شقَّة في العِلِّيَّة في منزل الرجل وتُصارعان الفقر الشديد. كان اسم الابنة إلن، وتحتلُّ البقعة المُشرقة في القصة- جميلة، ذكية، مُطيعة، وتعمل بأصابعها حتى العظام لإنقاذ نفسها وأمها من قبضة الفقر.

في نهاية الكتاب يوجد فصل طويل يحكي عن إلن في وظيفة عاملةٍ مُهاجرة أثناء فصل صنع التِّبن، وتتلقَّى راتبًا من أجولة التِّبن. تعاني أمُّها من ألم مريع في المفاصل، ولا تملكان ما يكفي لعلاجه؛ ولهذا تنوي الابنة أن يكون هذا هدف حياتها.

ثم يبدأ المطر في الهطول. يتوقَّف معظم الناس عن العمل، لكن إلن تستمر في الجزِّ ثم الجَزِّ، حتى تصاب بعد بضعة أسابيع بالتهاب الرئة وتموت في ذروة شبابها. في الطابق السفلي، تستمرُّ القصة بلا أحداث مؤثِّرة. يحتسي العجوزان -الأب والابن- كلَّ أنواع المنقوعات والصبغات ويعيشان حياتهما في دفء، يسترجعان ذكرى الأيام الخوالي.

قام الطُّلَّاب بتحليل النص، وحاوَلَت إلن النظر إلى ما كتبه والدها دون التفكير في نفسها. ما كتبه كان مُجرَّد كلمات، كلمات مُرتَّبة على الورق، تناضل لتحقيق معنى. لم تكن المُدرِّسة غارِقةً في الوقار، بل تنزلق على هذا وذلك بحيث ينطلقون إلى قراءة الكتاب التالي في القائمة. أصابها الملل كما هو واضح من تدريس "أبي" لألفور فينسون.

ذات ليلة سبت، ذهَبَت إلى حفلة مع زميلاتها في الصَّفِّ وتحدَّثَت إلى فتاة كانت لفتت نظرها في طُرقات المدرسة. كانت الفتاة بمفردها أغلب الأوقات، مثل إلن، وترتدي ملابس ليست على أحدث موضة-

بطريقة مُتعمَّدة. كان شعرها قذرًا، يتدلَّى خابطًا عينيها، وترتدي سلسلة جلدية حول عنقها بدت ضيِّقَة على نحو غير مريح.

قالت إن اسمها بيرتا، وقدَّمت بيرة إلى إلن. كانت بيرتا من مدينة مختلفة ولا تعرف أيَّ شخص. يستغرق منها الأمر ساعة تقريبًا للوصول إلى المدرسة. سألتها إلن لماذا لا ترتاد مدرسة في مدينتها، وحينها قالت بيرتا إنها كانت تتعرَّض للتَّنمُّر كثيرًا هناك، لحدٍّ أنها اختارت ارتياد مدرسة على هذا البُعد.

استغرقها الصمت. شعرت إلن بالإحراج.

وَيْلي، قالت بيرتا، مُضيفةً بمرارة أن لهذا بالضبط كانت تتعرَّض للتَّنمُّر.

ماذا تقصدين؟ سألتها إلن، وأجابتها بيرتا أنها قد وعدت أمَّها أنها لن تخبر أيَّ أحد في المدرسة الجديدة عن التَّنمُّر.

لأنكِ الآن ستتوقفين عن التحدُّث إليَّ وتُخبرين أصدقاءكِ أنني ضحية، وحينها سيكتشفون الأمر وتستمرُّ المشكلة فحسب.

ضحيَّة؟

نعم، دائمًا ما تقول أمِّي إن الناس إمَّا ضحايا أو جُناة...

أفهم الآن، قالت إلن، لكن لحسن حظك، ليس لديَّ أصدقاء.

هل تعرَّضتِ للتَّنمُّر أيضًا؟

لا، ولا أفهم لماذا. إنه شيء لا يُصدَّق في الحقيقة، قالت إلن. أنا متأكِّدة أن ذلك بفضل راكيل، الفتاة في صفِّي التي تتعرَّض للتَّنمُّر.

راكيل المسكينة.

في صحة راكيل.

من أجل راكيل.

في أحد أيام الجمعة، التقتا في الفُسحة وذهبتا إلى المركز التجاري. علَّمَت بريتا إلن كيفية نشل منتجات التجميل، واخترَعَت إلن لعبة تختبئان فيها في الطابق الأخير وتبصقان على رؤوس الناس في الطابق الأرضي. لم تصيبا أي رأس في أغلب الأحيان، باستثناء مرَّة واحدة، وحينها ضحكتا بشدَّة لحدِّ أن بريتا أوشكت على التبوُّل في سروالها، ثم شعرتا بذنبٍ مُريع وحاولتا تبرير فعلتهما عبر اختلاق قصص فظيعة حول الرجل الذي بصقتا عليه.

ثم ظهر حارس الأمن، لكنهما حاولتا الهرب منه. في أثناء ركضهما، انفكَّ شيءٌ ما. ركضت إلن ضاحكةً وحينها انفكَّ شيءٌ من رباطه، وحينها بدأت في البكاء مُتشنِّجةً، لحدِّ أنها لم تستطع التقاط أنفاسها، لحدِّ أن أطرافها تخشَّبَت وأصابعها انقبضت. وضَعَت بيرتا ذراعيها حولها، وضمَّتها إليها بشدَّة، واستغرَقَت في الصمت حتى هدَأَت إلن مُجدَّدًا.

هل أصحبك إلى المنزل؟ سألتها برفق، لكن إلن لم تستطع إخراج كلمة واحدة.

هل تريدين المجيء إلى المنزل معي؟ سألتها مجددًا بتردُّد. أبي سيخرج لشوي شرائح الحَمَل واليوم الجمعة، لا مدرسة غدًا، ويمكنكِ المبيت في منزلنا.

بَدَت عازمةً وصافية. أومية قليلًا. أومأت إلن. انتظرتا الباص في شفق الغروب. اقترحت بيرتا أن تتَّصل إلن بأمِّها، لكن إلن لم تستطع التحدُّث. حاوَلَت، لكنها بدأت حينها في البكاء ناحِبةً مُجدَّدًا.

بـدا منـزل بيرتـا وكأنـه خـرج مـن الحمـم البركانيـة لتـوِّه، بألـواح جـدران خـضراء وبيضـاء كمسـاكن أقـزام الهوبيـت. فكَّـرَت إلـن. كان والـدا بريتـا في عمـرٍ مُتقـدِّم، وكانـت هـي طفلتهـما الوحيـدة.

كان أبوهـا يرتـدي قُفَّـازات واقيـة، يرتعـش في الخـارج في الأمسـية البـاردة ويُقلِّـب شرائـح الحَمَـل. أمُّهـا تجلـس عـلى مائـدة المطبـخ، التـي عليهـا كانـت تتكـدَّس كومـة مـن الكتـب والصحُـف. ترتـدي عوينـات قـراءة عـلى أنفهـا وأخـرى عـلى جبينهـا. شـعرها كثيـف، ينتصـب في نهايته، أشـيبَ ومُصفـرًّا.

عندمـا سَـمِعَت وَقْـعَ خطواتهـما، بدَّلَـت العوينـات، وحملقـت في إلـن، ثـم ابتسـمت كسـمكة قِـرش. أشـاحت بيرتـا بنظرهـا وقدَّمَتهـما إلى بعضهـما البعـض.

(28)

كانت غرفة نوم بيرتا غرفةً لطفلة في الأساس. غرفة نوم طُلِيَت آخر مرَّة قبل تعميدها، قبل أن تبدأ في تكوين آراء حول الألوان. على الحوائط، كانت هناك صور لِقِطَطٍ مقصوصة من الجوانب العلوية لكراتين شوكولاتة وكذلك عددًا من الصورة المؤطَّرة والمُقتطعة لبيرتا ووالديها على مدار الأعوام. بوستر كبير بصورة لديڤيد بوي. كانت عيناه مُغلَقتَيْن، وعلى وجهه ينطلق سهم صواعق بقلم باستيل.

على الأرضية، كانت هناك أكوام من الملابس وبقايا الطعام وزجاجات صودا نصف فارغة وكُتل مفرقَعة من العِلْك وغبار يتقافز على جواربكِ أثناء حركتك. أضاءت بيرتا مصباحًا وأطفأت إضاءة السقف. كان الفراش غير مُرتَّب. ظلٌّ أبيض مُلطخ بالغيار ينسحب على النافذة.

أمقت كل شيء مبتذل، قالت بيرتا وسألتها إلن لماذا.

أعني، التقاط الأشياء فحسب وغسلَ يديك...

لا تغسلين يديك؟

نعم، أعني، بالتأكيد أفعل. أغسل يدَيَّ، لكن فقط لأنه يُفترض دائمًا أن أفعل هذا، في كل مرة أدلف فيها إلى المرحاض. طوال الوقت. وفقط لأنه يُفتَرض أن أذهب إلى المرحاض أصلًا. لكن في الأغلب أمقت التقاط الأشياء. وشراءها وأكلها والتخلُّص من اللفافات وانتظار الباص.

شيء مُملٌّ، قالت إلن.

يجب أن نتوقَّف، قالت.

ماذا تعنين؟

أن نتوقَّف فحسب عن فِعل أي شيء لا نريد فعله.

نتبوَّل في سراويلنا ببساطة.

نتبوَّل في نومنا.

ولا نستحمُّ أبدًا.

ونتبرَّز.

تمامًا حيث نقف.

ثم نستحم.

لا، لا، بل نهزُّ نفسنا فحسب.

تذكَّري فحسب أن تهزِّي نفسك.

ثم نأكل.

مستحيل.

نذهب إلى المدرسة.

إذا أحببنا.

نقلق بشأن المستقبل.

أيُّ مستقبل.

نتعلَّم.

نتعلَّم ماذا.

تقليم أظافرنا.

تمزيقها.

نقضم أظافرنا.

نكسرها.

نمشِّط شَعْرنا.

نستأصله.

نضفِّره.

نمقت شَعْرنا.

نجرح لحمنا.

نقطع الأشياء.

نمزِّقها تمزيقًا.

ننسلُّ من ذاتنا.

لندخل إلى أول رجل نقابله.

لا نثق في أحد.

لا نحتاج شيئًا

لا نرغب في شيء.

لا نُبدِّد شيئًا.

ينقصنا كل شيء.

أيًّا كان.

ذابت حوائط وأبواب غرفتي نومهما، وتداخَلَت حوائط المنزلين معًا، انفتحت غُرفتا النوم على بعضها البعض وانغلقتا في نفس الوقت. صارتا غرفة نوم واحدة، أكبر بمقدار النصف، لكن أصغر بمقدار العالَم.

أبدًا لم ترَ إلن نفسها في شخصٍ آخر من قبل. لا أحَدَ باستثناء أمِّها، لكنها الآن لم تَعُد ترغب في رؤية نفسها في أمِّها. لا ترغب في رؤية نفسها في أمِّها ولا أمِّها في نفسها، لكن أمَّها كانت في كل مكان ولا مكان، وافرة، صفراء، متدفِّقة.

رغم ذلك، في معظم الأحيان كانت بيرتا ترغب في المبيت لدى إلن في عطلة الأسبوع. المسألة كانت أن أمَّ إلن لم تلاحظ حتى أنهما تخرجان ليلًا ولا تعودان قبل الصباح.

مع بداية فصل الربيع الدراسي، كانت إلن قد تخلَّت عن كل نواياها بالتفوُّق في المدرسة. لم تَعُد تحضر امتحاناتها حتى، بينما تفوَّقَت بارتا وحقَّقَت نتائج معقولة دون الاستذكار كثيرًا. ازداد استحواذ والديها عليها استبدادًا، حاولا إغواءها برحلات الأسرة إلى الجبال الساحرة، وبالحيوانات الأليفة، وبأيٍّ وكلِّ شيء يخطر على بالهما لإطالة طفولتها.

من ناحيتها، انغمست إلن في الشُّرب والتدخين أمام أمِّها، التي لم تكن لديها أيُّ فكرة ما إذا كانت ابنتها تعمل أم تذهب إلى المدرسة أم ماذا. حلَّ الصيف بكل نَزقه وطيشه البرَّاق جدًّا، وهامت إلن وبيرتا في أرجاء المدينة من حفلةٍ إلى أخرى. أحيانًا ما كان يقع أمرٌ مزعج

لا تستطيع أيَّتهما تذكُّرَ ماهيَّته بالضبط؛ ذلك أنهما ساعدتا بعضهما البعض على النسيان. مشاهد في الحدائق الخلفية، في غُرف نوم أطفال مجهولين، في بيوت كبار بالغين يضحكون عليهما. كانتا إسفينَين مُربَّعَيْن في ثُقبَين دائريَّيْن، طفلتين عمليَّتين. ككلاب ترتدي نظَّارات شمسية أو رُضَّع في معاطف سهرة. كثيرًا ما كانتا تنامان مرتديتين ملابسهما، في ذراعي بعضهما البعض. في أيِّ مكان ببساطة. في الخارج. أينما يستقرُّ رأساهما. تُدخِّنان أعقاب السجائر التي يجدانها في مِنفضات السجائر، يحتسيان رشفاتٍ من نبيذ الآخرين.

في ذلك الخريف، انتقلت بيرتا للعيش في لندن. كانت أمها قد حصلت على وظيفة هناك، وخطَّطَ أبوها لكتابة كتاب حول رصِّ الأحجار أو استخدام المداخن القديمة أو حجم مصارف المجاري.

أبلغتها بارتا بالأخبار في آخر لحظة. كانت تعرف ذلك منذ التقتا. تعرف أن الرحيل كان إمكانيةً قائمة. ثم صارَ مُحتملًا، ثم محسومًا. كانتا في طريقهما إلى المتجر على الناصية، ثَملتَين وتتوقان لصودا البرتقال. كان الجوُّ قد بدأَ في البرودة، وأغسطس يقترب من نهايته، وبغتةً أخبرتها بيرتا بكل شيء.

سننتقل إلى لندن خلال أسبوعين.

أسبوعين؟

نعم...

وإلى متى ستظلُّون هناك؟

سننتقل إلى هناك... سنة ربما، أو للأبد. تريد أمي أن ألتحق بمدرسة داخلية مجنونة ما، يفرضون زيًّا معيَّنًا...

لكن ماذا يُفترض أن أفعل؟

يمكنكِ المجيء لزيارتنا.

لا أملك ما يكفي للباص حتى.

سيتبدَّل الحال.

كاذبة، همست إلن، بنظرةٍ بشعة على وجهها.

توقَّفَت بيرتا، نظَرَت إلى صديقتها بعينين مُتَّسعتَيْن. خَطَت إلن مُبتعدةً، عادت إلى البيت، وانسَلَّت إلى فراشها.

(29)

هـذه هـي الحيـاة يـا إلـن، يـا عزيـزتي، قالـت أمُّهـا. يظهـر النـاس في حياتـك، ثـم يرحلـون... بعضهـم دون تغيـير أي شيء وآخـرون بعـد أن يُغـيِّروا الكثـير جـدًّا، لا يبقـى شيءٌ سـوى الحطـام. كانـت تجلـس عـلى حافـة سريـر إلـن، وابنتهـا تحـدِّق في حسـب في الكـرة الورقيـة المـزَّقـة التـي تتـدلَّى حـول المصبـاح وتحـاول تجاهـل كلـمات أمِّهـا.

هـل تودِّيـن أن أخـبرك عـن أبيـك؟ سـألتها، واسـتدارت إلـن ناحيـة الحائـط، أغلقـت عينيهـا، عـلى أمـل أن تصمـت أمُّهـا. عندمـا تتحـدَّث ليليـا عـن ألفـور، أحيانًـا مـا كانـت إلـن تشـعر أنهـا تتحـدَّث عـن قطعـة مـن إلـن نفسـها، قطعـة فسـيحة وميِّتـة.

حينهـا تـرى إلـن تلـك القطعـة أمامهـا، كظـلٍّ يمتـدُّ مـن جسـدها ذاتـه، بينـما لا تـدرك أمُّهـا ذلـك عندمـا تنطلـق في حديثهـا هكـذا، يـزداد الظِّـلُّ ظُلمـةً وعمقًـا ويصـير الخـواء شـيئًا أسـودَ لامعًـا، بـاردًا وخطـيرًا.

عندما قابلتُ أباكِ للمرة الأولى، كنتُ أكبر من عُمركِ الآن بثلاثة أعوام. كان هو في ضِعف عمري. كان يجلس بعيدًا في آخر البار لحدٍّ أنني لم أره، لكنني شعرت به وأدركت أنه هناك، وعندما تقدَّمَ نحوي، لم أضطَرَّ حتى للنظر إليه لمعرفة أنه كان أجمل شيء وقَعَت عليه عيناي لأنه كان أجمل شيء يا إلن، أجمل شيء وُجدَ أبدًا، وأدركتُ ذلك دون الحاجة للنظر إليه.

أحدٌ لم يعرف حُبًّا كهذا، أحدٌ لن يعرف حُبًّا كهذا مُجدَّدًا. لم أره، أبدًا لم أره، لم أكن في حاجة للنظر إليه، شعرتُ ببساطة أنه رَجُلي، بؤرة حياتي وحِصنها. لا يتَّخذ الإنسان قرارات كهذه بعقله، لكن بجسده بالكامل، وهكذا وقع الأمر غريزيًّا، تداخَلَت خطوط عينَيَّ سابحةً أمامي، ضَعُف نظري، اشتدَّت حاسَّة الشَّمِّ لديَّ، تغيَّرَت حاسَّةُ اللمس.

أن تلمسي إنسانًا بعد أن تُقرِّري أنه حِصن حياتكِ ليس مجرد لمس. بل أعمق من ذلك. أعمق كثيرًا ممَّا يغرق فيه الناس عادةً. لا أتحدَّث عن الإشباع، لكن عن حقيقة بالأحرى. أن أكون حيَّةً. أن أكون جسدًا.

يصل وَعيُكِ إلى كل دواخل جسدكِ. تصير الكلمات ضعيفة جدًّا. أن يصبح لديكِ حصن، نواة، مدار. لا شيء أقوى من ذلك. لا يمكن وصفه. أبوكِ يا إلن، كان يتمتَّع بقوَّة جَذبٍ أصيلة. عندما يستخدمها؛ لا أحد كان بمقدوره الفرار منها. لا شيء يقوله كان بسيطًا أو يُمكن التنبؤ به.

نبذته زوجته، ونبذني أبي. كُنَّا أطفالًا ما زلنا، هل تفهمين؟

لكنكما لم تكونا أطفالًا، غمغَمَت إلن. كان في الخامسة والخمسين وأنتِ في العشرين.

صمَتَت أمُّها قليلًا ثم تابَعَت كما لو أنها لم تقاطعها البتَّة. كُنَّا أطفالًا، وكان العالم كبيرًا، ثمَّ حَمَلتُ بكِ، وحاوَلَت زوجتُه إفسادَ كلِّ شيء. آذتْه بشدَّة. عليكِ أن تعرفي كيف كانت تتحدَّث إليه. الأشياء التي قالتها له كانت في غاية البشاعة لحدٍّ أنني حاولت التحدُّث إليها، لكنها صرَخَت في وجهي واستغَلَّت الأطفال. كانوا مراهقين حينها، واستخدمَتهم ضدَّه.

لا يسعكِ أن تتخيَّلي يا إلن، إلى أي حدٍّ قد تصل قسوة الناس. جاءت إلى حيث نقيم بالأطفال لتريهم أباهم الفاشل، وبكوا، وبكى أبوهم، فيما هي لا تنعتني سوى بتلك «الطفلة». أبدًا لم تنظر إليَّ. أبدًا لم تتحدَّث إليَّ. ولا بكلمة واحدة. لا شيء. كانت تبغضني أكثر ممَّا تبغضه؛ بسبب وجودي فحسب.

لم نكن نرغب سوى في الشعور بالأشياء وأن نكون أحياءً هنا -والآن- معًا، نرسم وندع الكلمات تنساب. أرادَ أن يُقلِّل من شُربه وتضخَّمَت معدتي وصرَخَت زوجته وازداد هو اكتئابًا واستغرق أكثر وأكثر في الشُّرب وحينها على وشك العودة إليها وأخبرته أنني سأموت لو فعل ذلك. هذا ما فكَّرتُ به، أنني سأموت، ورحلَ ثم عاد على الفور، بخدوشٍ في كل موضع في جسده. جلده الجميل كان ممتلئًا بالخدوش، وحينها رأيته للمرة الأولى.

عندما عاد تملؤه الخدوش، كان قد عاد إلينا.

كان هذا عندما نظرتُ إليه للمرَّة الأولى. بغتةً، رأيتُ كيف أن الحياة تتلاعب به. ترينَ كل شيء على وجوه الناس- تجربة الحياة وقد تراكَمَت عليها، كل شيء يقبع هناك لترينه، ومع ذلك، قليلون مَن يمنحون أنفسهم الوقت لقراءتها. كان بمقدور أبيك قراءتها، ووصفها لبقيَّتنا، هذا كان عمله، لكن كان بمقدوري أيضًا قراءة أبيك

عندما رأيته لأول مرَّة. تبدَّى لي في طبقات وثنيَّات لا نهائية. كان شديدَ التعقيد، لكن في نفس الوقت شديد الشفافية.

رجُلٌ عجوز في التاسعة والخمسين من عمره. هُجرَ في طفولته. خُدعَ في التوجيه. عَرفَ الإذلال. عرفَ العزلة. نُبذَ. عُبدَ. عُشقَ. خدعَ في التربية. في الفهم. تفسير. حَضن. روح حيَّة تنبثق من اللا مبالاة. معجزة. يشعر باللَّذَّة. يبقى قليلًا، الأقفال مغلقة، يصير عالقًا. يرحل بعيدًا. يصير عالقًا. يرحل بعيدًا. يزداد غرورًا. وضعيات مزاجية. لا يثق في أحد. لا يرى أحدًا. ليس حقًّا. لا يشعر بشيء. ليس حقًّا. يتلاشى. يصير عالقًا. روح وُلِدَت من رحم اللا مبالاة وتموت بسببها مجددًا. معجزة. يرحل بعيدًا. يصير عالقًا في وضعية واحدة. يصير عالقًا لسنوات في النهاية. الكلُّ منحرف. رؤوس رمادية. التيار المتدفِّق يتراجع. يتخشَّب. ينتحب. يحاول الابتعاد إنشًا واحدًا. يفرك نفسه ويتحرَّر. يحفر بمخالبه نفقًا. ينسلُّ في النهاية عبره مُبتهجًا. يجفف نفسه. يتضاجع على الأرض الزلقة.

رجل عجوز في التاسعة والخمسين من عمره. قاذورات حول حفرة. قاذورات حول حفرة لعينة، سوداء، لا قرار لها. كل كلمة يكتبها تتوسَّل الحب، تتوسَّل التوجيه والتربية والفهم والتفسير، لكنها مجرد كلمات يقرؤها الحمقى ولا أهمية لها، لا أهمية لأي شيء، لا أهمية للحمقى ولا للكلمات التي يقرؤها الحمقى.

نظرتُ إلى أبيك ورأيته.

رأيتُ أباكِ ورأيتُ أنه يتوهَّم أنه يُحقِّق الخلود. يتوهَّم أن الآخرين سيموتون، بينما سيعيش هو للأبد عبر الكلمات الصغيرة التي يكتبها للمغفَّلين الصغار الذين يقرؤونها. لهذا كان وجهه قاتمًا للغاية، لهذا كان هو مشدودًا للغاية وعضلاته مُهتاجةً ومُتخشِّبةً، ولهذا كان يشرب

كثيرًا، على أمل استثارة التيار الدافق، لكنه صار عالقًا. عالقًا ومُتحجِّرًا بفعل الخوف من الموت.

وحينها، بالطبع، مات؛ ببساطة لأن الخوف لا يأتي أبدًا بلا سبب، وأوشكتُ على الموت معه، لكن لحسن الحظ، كُنتِ لديَّ...

وأنقذتِني.

(30)

توقَّفَت إلن عن الذهاب إلى المدرسة لكنها داوَمَت على ورديات عملها في مركز الاتصالات. صارت بارعةً في جعل الناس يعتقدون أنهم بحاجة إلى المجلات العلمية. كانت تجلس وتسرد جُملًا محفوظة على الهاتف ثم تلحق بالباص إلى المنزل للاعتناء بليليا.

وهو ما كان يشبه قليلًا ملء دور الجوِّ العام حولها. الأشياء التي تقولها ليليا وتفعلها نادرًا ما تستهدف أحدًا غيرها. الكلمات التي تبدوِّي مجلجلةً ثم لا تعود موجودة. تمامًا كأفكارها. كان الطعام إمَّا على المائدة أمامها تأكله- وإمَّا لا، وحينها تجوع. الشيء الوحيد الذي تهتم به بنفسها كان السجائر، التي تشتريها من متجر قريب على الناصية. خمس كراتين في بداية كل شهر.

تآلفَ الشعور الخانق مع التَّوْق للأمان وصارا شيئًا واحدًا وازدادت مشاعر إلن سوءًا، بعد أن تلاشى ما تبقَّى من ذلك الشتاء. كان من

المفترض أن تسمع أخبارًا من بيرتا في لندن كل فترة، لكن ردودها كانت متأخِّرةً، وقاسية. أحيانًا ما كانت تخرج وتلتقي ببعض المعارف، ولا تقول شيئًا، تشرب فحسب.

قُطِعَت الصِّلات حتمًا، فكَّرَت ذات مرة، وفي إحدى الليالي في نهاية نوفمبر، بينما تستلقي مُتخدِّرةً في فراشها ولا تهتم حتى بفتح جهاز الكمبيوتر أو الهاتف، غَفَت واستغرقت في الأحلام.

خشبة مسرح خاوية، مُظلِمَة، ومقاعد المسرح ممتلئة بالناس. كان هناك جذرٌ يستلقي في منتصف خشبة المسرح. كان يتحَرَّك ويتبرعم للأسفل في الأرضية السوداء ثم ينمو كساق الفول عاليًا في الهواء. نَمَت النبتة بسرعة، فروع ضامرة تفرَّعَت مرارًا وتكرارًا حتى امتدَّت عبر خشبة المسرح بأكملها وعاليًا في الهواء، ثم تحت وعبر المقاعد، مُخترقةً الجمهور، ومطوِّحةً بالمشاهدين في الهواء وملقيةً بهم في كومة في منتصف خشبة المسرح.

استيقَظَت بغتةً وخَطَت إلى جهاز الكمبيوتر. تدفَّقَت المسرحية من داخلها بغزارة شديدة لحدٍّ أنها شعرت كما لو أحدهم قد احتلَّ جسدها وأنه يستخدم أصابعها على لوحة المفاتيح.

لم يكن التَّغيُّر فوريًّا، ليس قبل الصفحة العشرين، ثم لاحَظَت بغتةً شيئًا فيما يحيط بها، سكونًا حادًّا غير معتاد، أو أنها أضواء الشمال على الخليج الصغيرة. كانت تلك اليقظة جديدةً عليها، اخترَقَت لا مبالاتها، واستمرَّت هي في الكتابة، كتَبَت حتى لم يَعُد هناك سوى فراغ صغير. بحجم قبضة أو قلب تقريبًا، وصارت تتنفَّس بشكل مختلف. اختفى ذلك الصوت، المُختنق، الصافر. ارتخى حلقها.

انطلقت أفكارها بشكل أفضل في عقلها، أنجَزَت بداية ونهاية. تناوَلَت كُتبًا من المكتبة وقرأتها. كتبت مسرحية أخرى ثم ثالثة،

كانت الأكثر إشباعًا لها. كانت بعنوان "أوتار وريشات"، ثمانون صفحة حول رجل شابٍّ وأبيه، وعمِّه، وجَدِّه.

في الليلة التي أنهَت فيها المسرحية، اختفى الظِّلُّ. كانت أمُّها تجلس في المطبخ وعندما دلَفَت إلن لتجلب شيئًا من الثَّلَّاجة، تطلَّعَت الأمُّ إلى ابنتها وقالت:

شيءٌ ما مختلف فيكِ.

جفَلَت إلن. لم تكن معتادة على انتباه ليليا لها.

أنجزتُ مسرحية، قالت إلن وابتسمت.

هل أستطيع أن أسمعها؟ سألتها ليليا، وأجابتها إلن أنها تخجل من قراءتها بصوتٍ عالٍ.

سنقرؤها معًا، قالت ليليا، وفي النهاية وافَقَت إلن. جلستا جنبًا إلى جنب في غرفة القراءة وتناوَبَتا القراءة. طفَحَت عينا ليليا بالدموع، وقاطَعَت القراءة مرةً تلو الأخرى بصيحات الإعجاب.

عندما انتهتا من القراءة، قالت لإلن إنها يجب أن ترسل المسرحية إلى المسرح. لن تخسري شيئًا بذلك، قالت. بعد شهرين، أرسلت إلن "أوتار وريشات" إلى المديرة الفنية للمسرح. لم تكن تتوقَّع ردًّا من أيِّ نوع، لكنها تلقَّت رسالة مُفادها أن المسرحية ستُقرأ من قِبل اللجنة الفنية التي تتَّخذ القرارات بشأن المسرحيات التي تُعرض في المسرح. سألتها المديرة الفنية أيضًا إن كانت مُصيبةً في تخمينها أنها ابنة الكاتب ألفور فينسون وأنها لم تبلغ العشرين بعدُ؟

أجابتها إلن وقالت إنها على صواب في كلا التخمينين. عليها فحسب أن تنتظر أسبوعًا قبل أن تتَّصِل بها المديرة الفنية وتدعوها إلى اجتماع.

اتَّفق جميع مَن في اللجنة على أن المسرحية جيدة، وأرادوا حتمًا من المسرح أن يشتريها من إلن ليبدأ عرضها الأول في الموسم المقبل.

بدأت ليليا في التحدُّث عن كليهما بصيغة المُثنَّى. ستذهبان إلى العرض الأوَّل لمسرحيتهما في المسرح. ستكون مسرحيتهما شهيرة جدًّا. في بعض الأحيان، كانت صيغة المتكلِّم بالمُثنّى تتحوَّل إلى صيغة المتكلِّم بالمفرد: ستذهب ليليا إلى مسرحيتها في المسرح، ستُحقِّق مسرحيتها نجاحًا هائلًا... ستشعر إلن بالدُّوار بعض الشيء، لكن حتمًا ستتغلَّب على ذلك كما اعتادت أن تفعل، وحينها ستذهبان إلى العرض الأول، وابتهَجَت ليليا كثيرًا لأن إلن لم يطاوعها قلبها أن تُصحِّح كلماتها.

في الليلة السابقة على القراءة السريعة الأولى، أدركت إلن أن أمَّها تعتقد أنهما ستذهبان لحضور المسرحية معًا.

ماما، أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب بمفردي، وجَدَت إلن الشجاعة أخيرًا لتقول.

سأكون معكِ بروحي، أجابتها أمُّها بحدَّة، بعد تفكير قليل، ثم تابَعَت التفتيش في خزانتها. في الصباح التالي، عندما خرجت إلن مُسرعةً، كانت أمُّها تجلس في الرَّدهة، مستعدَّةً لمرافقتها.

أمِّي، لا أستطيع اصطحابك إلى القراءة معي، قالت إلن برفقٍ قدر ما تستطيع، لكن هذه المرة، بدت ليليا وكأنها لم تسمعها بتاتًا. نهَضَت واقفةً، ترتعش باستثارةٍ طفولية، وحينها نفدَ صبر إلن.

أمِّي، لن تأتي معي، قالت بحسم. هذه قراءة لمسرحيتي أنا، وليست مسرحيتك! هُرِعَت إلى المرحاض حيث فرَّشَت أسنانها بيدٍ مرتعشة، طرطشت الماء على وجهها، وأدركت أنها ستتأخر، عادت إلى غرفة نومها، وارتدت أول ملابس وقع عليها نظرها.

جـوارب رياضيــة قـذرة وتيشـيرت مُتقـشِّرًا بإعـلان لشركـة أدويـة في مُقدِّمتـه، وسروال ركـض بأبازيـم عـلى جانبيـه، وكِنـزة مزخرفـة مع قلنسـوة قطنيَّـة رماديـة. حـشَرَت قدميهـا في حـذاء جلـدي في الردهـة، تطلَّعَـت إلى أمِّهـا وقالـت باقتضـاب:

مع السلامة!

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

(31)

في بداية كل شهر، كانت ليليا تتلقَّى إعانة إعاقة بقيمة 230,000 كرونة، ما يساوي 2000 دولار أمريكي تقريبًا. وقبل أن تبلغ إلن الثامنة عشرة، كانت تحصل على 600 دولار إضافية كإعانة أطفال، وأخيرًا إعانة أسرة بقيمة 300 دولار.

ما يعني أنه في عيد ميلاد إلن الثامن عشر، خَسِرَت ليليا ثُلث المبلغ الذي كانت تعيش عليه تقريبًا. وعَدَتها إلن أن تعوِّضها عن ذلك، لكن الأجور التي تتلقَّاها كانت متدنِّيةً للغاية. لم يكن أمامهما خيارٌ سوى حرمان نفسيهما من أي شيء يمكن تسميته بالفائض من أجل ما هو ضروري، باستثناء السجائر، بالطبع. كانت السجائر مثل الكهرباء. وبضعة كراتين من النبيذ. مثل الماء. وبالطبع، بضعة زجاجات من الكحوليات- لمساعدة ليليا على النوم.

عندما وقَّعَت إلن العقد مع المسرح وتمَّ إيداع الدفعة الأولى -نصف مليون كرون، حوالي 4500 دولار- في حسابها، خرَجَت هي وأمُّها لتناول الطعام. تناوَلَتا الاستاكوزا وشرائح اللحم واحتستا النبيذ الأحمر ثم طلبتا زجاجة ثانية وثالثة ثم تناولتا نوعًا من مخفوق البيض كتحلية. تحدَّثَت ليليا عن الندم، عن كيف يحوِّل الفقراء أنفسهم إلى آلات بيع تُقايض الندم بالكرونات، وأجابتها إلن "لا"، "لا"، ثم تحدَّثَتا عن ديون ليليا بينما تحتسيان القهوة والكونياك.

كانت ثَمِلة قليلًا، وقبل أن تدرك الأمر، عرَضَت عليها سداد الديون بدفعتها الأولى، وأبدت ليليا ابتهاجها وامتنانها الشديدين لحدٍّ أن إلن قالت إنها ستسدِّد رهونات الشقة أيضًا لبضعة شهور. على أيَّة حال، طالما عاشت هناك مجانًا- طفولتها بأكملها ومُراهقتها أيضًا. كذلك، ربما تفعل ليليا شيئًا حيال نفسها، كأن تحصل على مساج أو تذهب إلى المصحَّة في جبال الألب الفرنسية. أو تذهب إلى طبيب الأسنان فحسب.

هكذا انطلقتا تَحلُمان بكل الأشياء التي تستطيعان فعلها بأموال إلن. طالما أرادت ليليا أن تُجرِّب الإبر الصينية. إلى ذلك، لم يسافرا سويًّا قطُّ إلى الخارج. في الحقيقة، لم تسافر إلن إلى الخارج قطُّ، بينما لم تسافر ليليا سوى مرتين عندما كانت صغيرة، إلى الدنمارك في المرتين.

أرادت إلن أن تذهب إلى لندن، لكن ليليا قالت إنهما ينبغي أن تذهبا إلى منطقة كيرالا في الهند، ثم تُبحران عبر نهر البامبا فيما الناس يتبادلون الأغاني عبر الضِّفَّتين.

تخيَّلي فحسب، قالت وأغلقت عينيها. الأصوات في ضوء الشفق والغابة السوداء والهدوء.

لبرهة قصيرة جدًّا، خطرَ على بال إلن أنها ينبغي أن تشتري لليليا تذكرة ذهاب بلا عودة إلى الهند، لكن الخجل الذي أعقب

تلك الفكرة جعلها تنساها على الفور. فتحت ليليا عينيها، ابتسمت وقالت إن كل شيء الآن سيكون على ما يرام. ستصبح إلن كاتب ثريَّةً ومشهورة، وستعتني بكليهما، وربما تشتري سيارة كاديلاك من أجل ليليا- ورديَّة مثل التي اشتراها إلفيس بريسلي لأمِّه.

انكمشت إلن على نفسها وشعرت بخوف خانق طفيف لكنها تخلَّصَت منه. بعد أن دفعت فاتورة العشاء، لم تَعُد إلن تملك 4500 دولار، بل 4000 دولار.

(32)

كانت المسرحية هراءً مَحضًا. سَمِعَت إلن ذلك بنفسها وأدركت في نفس اللحظة أن السبب الوحيد لاهتمام المسرح بعرض المسرحية كان أنها إلن، كانت إلن. ابنةَ أبيها. ولأن المسرحية كانت عن الآباء. كان عنوان العمل «ريشات وأنياب» (*Feathers and Sinews*)، وهو ما ظنَّت أنه تلاعُبٌ ظريف بعنوان مسرحية «آباء وأبناء» (*Fathers and Sons*) لتورجنيف. سيبيع المسرح أطنانًا من التذاكر. كان الجميع يرغب في معرفة ما ستقوله إلن عن أبيها. يرغبون في رؤية أبيها وقد بُعِثَ من موته.

كل الأمور التي بمقدور الناس أن يستشعروا أن الأرملة لم تُفشِها للعامَّة. كل الأشياء التي همست بها أمُّ إلن إلى الحوائط في منزلهما، وغمغمت بها إلى سجائرها وفي رأس إلن سريع التأثُّر.

كانت إلن مستغرقة للغاية في هذه الأفكار لحدٍّ أنها لم تلاحظ حتى أن المديرة كانت تستخفُّ بها. كان هناك كثير من الضجيج قادمًا من انكسارها الذاتي، لحدٍّ أنها لم تسمع الكلمات "محور" و "نقطة الانعطاف".

لنفس السبب، لم تشعر بالبرد حتَّى اقتربت من البيت. كانت تسير كما لو كانت في غيبوبة لكنها أفاقت بغتة عندما رأت سيارة السيدة العجوز من قسم الإكسسوارات. سيارة إلين.

سيارتي، السيارة العائلية الصدئة، التي تشبه المُربَّع، التي عرضت عليها توصيلةً فيها في اليوم السابق. لماذا كنتُ ألاحقها؟ هل ظننتُ أن إلن لن تلاحظ؟ هل كنتُ أنوي عرض توصيلةً عليها مجدَّدًا؟

لا. أبطأتُ. تصرَّفَت إلن كما لو أنها لم تلاحظ أيَّ شيء. اعتقَدَت أنني أبدو مسالمة للغاية. مُنفِّرةٌ فحسب في أسوأ الأحوال، لكن ذلك ليس سوى عَرَض جانبي للوحدة. كانت تظنُّ فحسب أنه من الغريب أن تَشرع سيدة الإكسسوارات في ملاحقتها وفكَّرَت في السبب المحتمل لذلك.

ربما يتعلَّق الأمر بأبيها، كأغلب الأمور الأخرى في حياة إلن. شيء ما وقعَ قبل أن تُولَد حتى. ربما كانت سيدة الإكسسوارات مُعجبةً بها، خطرَ لإلن بغتةً، ووجدت ذلك طريفًا بعض الشيء...

سيكونان زوجًا رائعًا. كلقطة الصورة "قبل وبعد".

اشتدَّ الشعور بالبرد.

لماذا أفعل ذلك؟ فكَّرَت إلن.

مرارًا وتكرارًا.

لماذا قدماي باردتان جدًّا هكذا؟

كانت ليليا ما تزال جالسةً في المطبخ عندما دلَفَت إلن، ترتجف من البرد. بمقدورك سماع صوت ارتطام إبرة بالأرض، وعندما تطلَّعَت عبر سحابة الدخان الصفراء، رأت أُمَّها في نهاية المائدة، رأسها مستلقٍ أمامها على المائدة وشعرها مُنسدل فوقها -مُشعَّث، أصفر، طويل- كدِثار.

ماما؟ نادت برفق. ماما، هل أنتِ بخير؟

لم تسمع أي شيء لبرهة، ثم رفعت ليليا رأسها.

هل كنتِ غافية يا ماما؟

نعم، أريح عينَيَّ قليلًا، أجابتها ليليا، مُشعلةً سيجارة ومتطلِّعةً عبر النافذة.

هل هناك أحدٌ يلاحقك؟ سألَتها وأشارت. خَطَت إلن وتطلَّعَت عبر النافذة إلى باحة وقوف السيارات بجوار مبنى الشُّقَق، ورأت السيارة العائلية لسيدة الإكسسوارات ثم خَطَت عائدةً باندفاع، ونزَلَت الدَّرَج وخرَجَت إلى الباحة. هرعَت تجاه غطاء المحرك وخبطت عليه بقوَّة.

هناك كنت أجلس، منهمكةً في هاتفي؛ جَفلتُ. ثم خرجتُ من السيارة ونظرتُ إلى إلن، جامدةً، ولم أنطلق بكلمة.

توقَّفي عن مُلاحقتي! صرَخَت. آخر ما ينقصني هو عجوز سحاقية مهووسة بي!

عندما رأت تعبيرات وجهي، نَدِمَت على ما قالته على الفور. كانت دائمًا ما ترفض الناس ثلاث مرَّات على الأقل قبل أن تفتح نفسها لهم، مثلي تمامًا، ومثلي تمامًا، تندم على ذلك في كل مرة.

قفَلَت راجِعةً إلى أمِّها وفي نيَّتها الذهاب مباشرةً إلى غرفتها، لكن ليليا حينها كانت تقف هناك، شاحِبةً كالموتى، تسألها إذا كانت إلين يونسدوتر هي مَن كانت في السيارة.

لا أعـرف، قالـت إلـن. تصنـع إكسسـوارات الأفـلام، ونعـم، اسـمها إلـين ربمـا، شـيئًا يبـدأ بحـرف (إ).

إنهـا المـرأة التـي عـثَرَت عـلى أبيـكِ، قالـت ليليـا، قابضـةً عـلى وجههـا في رعـب، كـما لـو أن إلـين يونسـدوتر قـد عـثرت عـلى أبيهـا في تلـك اللحظـة ذاتها.

(33)

في رومانيا، توجد أحجار حيَّةٌ تنمو وتتكاثر. يستغرق كلُّ نَفَسٍ ثلاثة أيَّام، وتتحرَّك لأقل من بوصة كل شهر، لكنها تتنفَّس. تتحرَّك.

يدعونها (*trovants*)، أو «التحجُّرات الرملية»، وعندما تُقطع إلى نصفين، تنمو في حلقات، كالأشجار. قرأت عنها أول مرة في مجلة علمية باعت لي إلن اشتراكها على الهاتف. قصصتُ صورة لتلك الأحجار وعلَّقتُها على الحائط وبحثت عنها كثيرًا على الإنترنت، لكنني لم أذهب لرؤيتها في رومانيا قطُّ. كأفراس نهر مشوَّهة مُتخفِّية جزئيًّا في الماء، في زمانٍ آخر، من عالم آخر، بيننا.

يحدث هذا تحت مجموعة فريدة بالكامل من الاشتراطات البيولوجية. المقدار المناسب من الكالسيوم في التربة، نسبة دقيقة من الرطوبة في الهواء. سلسلة من التحسينات والتفاصيل. قردٌ يأكل ثمرة جوز، يتبرَّز في الموضع الصحيح في الأرض، تنمو زهرة بعينها، يأكلها

طائر بعينه، يطير بدوره على نوع معيَّن من الرمال، يتبرَّز، عاليًا تنمو شجيرة، ثم تحترق الشجيرة إلى سيقان ذاوية، تنتج بذورًا، ويظهر قرد، وهكذا يستمرُّ الأمر. مُتكرِّر، تدريجي، مملٌّ.

الواحدية هي أكثر أشكال الأوهام ازدراءً، فكَّرتُ عندما قرأت عن الـ «*trovants*". هذا الإدراك الذي يتفشَّى، ويجعل الروابط بيني وبين تلك الأحجار، بيني وبين كل أولئك الناس الذين يتثاقلون بلا وجوه عبر حياتي -داخلين إليها وخارجين منها مُجدَّدًا- وكأنها غير موجودة. كيف أتظاهر بأن أفكاري لي وحدي، كما لو أن أحدًا لم يفكِّر فيها قَطُّ من قبل، كما لو أن أحدًا لا يفكِّر فيها الآن.

والآن والآن والآن.

نفس الأفكار بالضبط.

اجترع ألفور فينسون نِصفَ لتر من اللاندي، حشر زجاجة أخرى في جيبه، وانطلق إلى الخارج رغم احتجاجات ليليا. إلى أين ينوي الذهاب وهو سكران هكذا، لماذا؟ هتَفَت، ونخرَ هو وتَطوَّحَ وسقطَ على بسطة الدَّرَج عندما حاولَ ارتداء حذائه. كان صارَ منذ زمن طويل يتلعثم في حديثه بحيث لا يفهم أيُّ شخص كلمةً واحدة يقولها.

كانت إلن نائمة في مهدها. كانا جالسَين، يتحدَّثان ويدخِّنان وقد استهلكا كلَّ السعادة. بدلًا من أن ينعكسا على بعضهما البعض ويخلقا عالمهما الخاص، صارَا مُنزعجَين ومُتألِّمَين، ولوفي، زوجة ألفور، كانت معهما هناك، وجود غير مرئي في غرفة المعيشة، مع كل صياح المراهقين وشعور ألفور بالذنب.

قال ألفور إنه عادَ للأبد، وأنه لن يتركها ثانيةً، لكن ليليا قالت إنها لا تصدِّق ذلك لثانية واحدة، وأن ألفور قد جُنَّ، وأنها تأذَّت،

وكهذا كان ينتهي بهما الأمر في أخدود العادة ليلةً بعد أخرى، حتى يتشوَّش عقل ألفور عادةً ثم يستغرق في النوم.

لم يكن كتبَ شيئًا لشهور، وألقى بلائمة ذلك عليهما، ليليا ولوفي، المرأتَين اللتين لا تكتفيان منه.

يوجد القليل جدًّا مِنِّي لكما أنتما الاثنتين، كان يهذر ويتشوَّش مُجدَّدًا، لكن بدلًا من الخلود إلى النوم، كان ينطلق إلى الخارج ويحتسي مزيدًا من الشراب.

عليَّ أن أخرج من هنا، كان يقول، لكن ليليا لا تفهم ما يقول. كان يتعثَّر على بسطة الدَّرَج. تخلد هي إلى النوم. إنها الثانية صباحًا. تشعر بإرهاق شديد. لا بُدَّ أنه عاد إلى لوفي، تُفكِّر، وإلن تتحرَّك مُضطربةً في نومها. تستسلم للإغواء وتأخذها بين ذراعيها، تنظر إلى الوجه الثَّمِل بالنوم، وتحتضنها بقوَّة.

ماما، تُهَمهِم إلن. كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي تنطق بها، رغم حقيقة أنها في عمر العامين. أمسكت بخصلة من شعر ليليا في يدها الصغيرة وجذبتها، وعندما زَعَقَت ليليا، ضحكَت بحيث التمعت اللآلئ الصغيرة في فمها. استغرقتا في النوم في فراش ليليا وألفور ثم استيقظت ليليا، بعد ساعتين، بعينين مُتَّسِعَتيْن على يقينٍ بأن شيئًا مريعًا قد وقع. في البداية، هرعَت إلى الخارج بمفردها، ثم سرعان ما تذكَّرَت إلن واستدارت عائدةً، تناوَلَت الطفلة النائمة بين ذراعيها، ثم نزَلَت الدَّرج مُسرعةً، وخرجت إلى الشارع.

كانت الساعة حوالي الرابعة صباحًا. وأنا في الخارج مع فيولا، التي كانت ثَمِلة للغاية. مُطلَّقة مؤخَّرًا وقد عادت إلى أيسلندا. أحيانًا ما كان ينتهي بي الأمر في هذا الدور وأضطرُّ لرعايتها كطفلة طوال الليل، أُبعِدُ عنها الرجال الذين يفكِّرون في استغلال سُكْرها، وأجذبها بعيدًا

عـن أي غريـب قـد تُلقـي بنفسـها عليـه، أتلقَّـى تقريعاتهـا عـلى كل ذلـك- بـل تضربنـي بحقيبتهـا حتَّـى. في تلـك الليلـة، أعَدتُهـا إلى البيـت، وتركتُهـا، مرتديـةً ملابسـها بالكامـل مـا تـزال، عـلى غطـاء فراشـها، تُغمغـم بـشيءٍ مـا حـول طلاقهـا. ثـم شرعـتُ في المـشي إلى البيـت.

ألفـور يسـتلقي عـلى بُعْـد مائـة مـتر تقريبًـا مـن المـكان الـذي كُنَّـا التقينـا فيـه منـذ بضعـة أيَّـام وتحدَّثنـا، لكـن ليـس عـن شيء مُحـدَّد. كان في وضعيـة عجيبـة لحـدٍّ أننـي أدركـتُ عـلى الفـور أنـه ميِّـت. انحنيـتُ فوقـه، وضعـتُ راحتـي عـلى جبينـه. كانـت عينـاه مفتوحتـين فأغلقتُهـما. مرتديًـا معطفًـا رماديًّـا- أخـضر وقفَّـازات جلديـة سـوداء، بـدا وجهـه أبيـضَ كالطباشـير.

في جيبـه كان يحمـل علبـة سـجائر جولـواز زرقـاء بسـيجارتين فقـط فيهـا، إحداهـا مقطوعـة عنـد الفلـتر، ومحفظـة بُنِّيَّـة مـن الجِلـد، فيهـا بطاقتـان ائتمانيَّتـان وورقتـان مُجعَّدتـان بألـف كرونـة، ومفتـاح لمنـزل زوجتـه، وآخـر لمنـزل عشـيقته.

إذا نظـرتَ إلى خريطـة الموقـع الـذي وجدتـه فيـه هـذا الصبـاح، سـتجد أنـه بالضبـط عـلى نفـس المسـافة مـن بيـت زوجتـه وبيـت عشـيقته، أي أنـه مـات في المنتصـف بينهـما تمامًـا.

نظريتـي الخاصـة أنـه فعـل ذلـك بـلا وعـي عـن عَمْـدٍ، كـما يفعـل النـاس في الحكايـات الخياليـة. قبـل بضعـة أيـام فحسـب، صادَفتـهُ بعيـدًا عـن تلـك البقعـة، توقَّفنـا قليـلًا وثرثرنـا ودخَّنَّـا، وبحسـب مـا كنـت قرأتـه ورأيتـه لألفـور، كان بالضبـط كـما يُفـترض أن يكـون- يُضفـي الطابـع الدرامـيَّ والمسرحـيَّ عـلى حياتـه. كثـيرًا مـا كانـت هنـاك شـخصية في رواياتـه تعيـش في عبوديـة مطلَقـة لمشـاعره، ويتابعهـا القـارئ عـبر طريقـة

ألفور في التفكير حتى يستطيع وضع نفسه مكان الشخصية ويفهم سلوكها الأكثر غرابةً.

اجتراع نصف لتر كامل من اللاندي تمامًا في منتصف المسافة بين المرأتين اللتين عَشِقهُما، هو في الحقيقة سِمَة جمالية تُذكِّرني بإحدى قصصه. وجه بلاستيكي أبيض- مُتَلَبِّد وقبعة حمراء، ونهر من القيء، زجاجة فارغة، وجُثَّة. تمامًا كالذروة الميلودرامية في قصة لألفور فينسون.

تحسَّستُ وجهه، شعرتُ أن التَّخشُّب المَوتِيَّ قد بدأ عمله بالفعل. كان معطفه مفتوحًا فشرعتُ في تزريره، بشكل عشوائيٍّ تمامًا، لكنني عثرتُ على علبة السجائر في جيبه الداخلي، وتناوَلتُ واحدة من السيجارتين -السيجارة السليمة- وأشعَلتُها.

ليُباركِ الرَّبُّ، أيَّتها الجُثَّة، همستُ وشعرتُ بوجوده. شعرتُ كيف التفَّ كالدوامة، ثمَلًا وحُرًّا، ممتزجًا بدخان السيجارة. عندما أغلقت عينيه، رأيتُ كيف تبدَّلَ حاله -بين الطين والإنسان والطين والإنسان والطين والإنسان- في ومضة عين، في عين عقلي.

أبدًا لم ينتهِ هذا المشهد. صارَ يمرُّ أمامي في حلقة أبدية. الصدمة العصبية ليست، بالطبع، سوى افتنانٍ.

رأيتُ ليليا. ظهَرَت ماشيةً عند الناصية بفتاة صغيرة بين ذراعيها. في معطف من الجلد المدبوغ والفتاة لا تبلغ سوى عامين على أقصى تقدير، ملفوفةً في بطانية مزركشة ومُتشبِّثةً بأمها بلُطَخٍ حمراء على خدَّيها ورأس عارٍ في البرد. خطوتُ بثبات نحوهما وأمسكت بليليا من كتفها.

أبحثُ عن...، قالت ونظرت من فوق كتفي، رأت ألفور، ونادته بصوتٍ عال.

لتأتي معي، قلتُ، علينا أن نستدعي الإسعاف.

هل هو نائم؟ سألتني وهَزَزتُ رأسي. ذكَّرتُها بالفتاة بقول "مرحبًا" لها .

ألستِ فتاة صغيرة جميلة؟ قلتُ، ثم ناولتها ليليا إليَّ وخَطَت إلى ألفور. كانت باردة، حشرتها تحت معطفي واخترقت عواءات أمِّها سكونَ الليل، مُوقِظةً أهل الحيِّ.

استدعى أحدهم الإسعاف. وصل المُسعِفون ورجال الشرطة بسرعة، صامتين وجادِّين. وُضع الجسد على مَحفَّة. كانت ليليا حزينة بشكل عصيٍّ على العزاء. اقترحتُ أن آخذ الطفلة إلى مكان ما داخل أحد المنازل، لكنهم لم يسمحوا لي. ظهرت امرأةٌ عجوز وتشاجَرَت مع رجال الشرطة حتى سُمح لنا للذهاب إلى منزلها. جلسنا في غرفة المعيشة لديها.

لم تنطق إلن بكلمة، لكنْ عيناها كانتا كالصحون الطائرة، تراقبان كل شيء حولها. فكَّرتُ كيف سيؤثِّر عليها هذا، وما إذا كانت ستفهم وماذا ستفهم. كانت أضواء الشرطة الزرقاء تومض عبر النافذة. صرخات أمِّها تتسرَّب إلى غرفة المعيشة، إلى المرأة العجوز التي دلَفَت ببسكويت الشاي وكوب حليب.

كانت الحوائط مُغطَّاةً بصور أطفال- من الواضح أنها كانت مُتمرِّسة في التصوير. خطرَ لي أن أُمرِّر لها الفتاة، لكن حينها تَشَبَّثَت بي الفتاة أكثر. كان شعرها خفيفًا وأشقر، كالحرير، ودغدغ أنفي. وقلبها ينبض بتسارُعٍ غير عادي، أدركتُ أنها كانت صامتةً لأنها خائفة.

دلـفَ رجـل شرطـة شـابٌّ. قـال إن الأُمَّ تبحـث عـن طفلتهـا. قالـت المـرأة العجـوز إنـه لا يُعقَـل أن نعطيهـا الطفلـة في حالتهـا هـذه. أومـأ رجـل الشرطـة، ثـم قطَّـبَ جبينـه.

ألا يوجد أحدٌ يمكنه الحضور لاستلامها؟ قريبٌ ما؟

تقول إنه لا يوجد أحدٌ.

إذن فعليكـم أن تسـألوها مُجـدَّدًا، قالـت الجَـدَّة؛ لأنهـا لـن تأخـذ الطفلـة في حالتهـا هـذه. أخبِروهـا أن الطفلـة مـع امـرأة كانت جـدَّةً لثماني مـرَّات وأم جـدَّة لأربـع مـرات، وأننـا سـنتناول البسـكويت والحليـب، وربمـا تغفـو الطفـل قليـلًا عـلى الأرجوحـة.

خـرجَ رجـل الشرطـة مجـدَّدًا، وجلسـنا في الأضـواء المومضـة. كانـت تتشـبَّث بمعطفـي بقـوة، حاولـت أن أتذكَّـر تهويـدةً، لكننـي لم أتذكـر أيَّـة أغنيـة مـن هـذا النـوع؛ لذلـك دندنـتُ فحسـب بمقطـع مـن أغنيـةٍ مـا بالقـرب مـن أذنهـا.

سرعـان مـا هـدأت صرخـات أمِّهـا، أو أنهـا ابتعـدت عـلى الأقـل، ثـم ارتحَلَـت السـيارات. دلـفَ رجُـلُ الشرطـة مجـدَّدًا وأخبرنـا أن جـدَّة الطفلـة في طريقهـا، وأنهـا سـتصل إلينـا بعـد سـاعة عـلى الأقـل.

جَلـسَ عـلى مقعـد في غرفـة المعيشـة معنـا، وتحدَّثنـا عـن أمـورٍ شـتَّى. قـادت المـرأة العجـوز المحادثـة، مُصمِّمـةً عـلى تخفيـف المـزاج العـام. ببـطء، لكـن بثبـات، تباطَـأَت ضربـات قلـب إلـن الصغـيرة، وشـعرتُ بهـا تسـحب الهـواء حتَّـى أعـماق جسـدها.

(34)

كان لدى ليليا جحافل من المعارف والأصدقاء بدرجات متفاوتة من التواصُل، لكنهم كانوا دائمًا قريبين على الهامش، يتسكَّعون داخلين إلى حياتها وحياة إلن ثم خارجين مجدَّدًا. عرفت ليليا عُشَّاقًا يقدِّمونها هي وإلن إلى آبائهم، أو حتى إلى أطفالهم. صديقات افترقن عن رجالهن وصِرن ينشدن الرفقة حتى يختفين مجددًا مع علاقاتهن التالية.

لفترة من الزمن، كانت رسومات ليليا رائجةً بشكل ما. تعرضها في المتاحف والجاليريهات، ويأتي الناس إلى منزلها لشراء اللوحات. كانت ليليا تُدرِّس المنهج الفصلي في كلية الفنون.

كانت جدَّة إلن وجدُّه، والدا ليليا، يعيشان في الريف ومنشغلَين عنهما بعض الشيء. لديهما أطفال آخرون يبلون بلاءً حسنًا، ولا داعي للقلق عليهم، بخلاف ليليا وكل مآسيها، والكَمد الذي يبدو أنها لن

تتجاوزه أبدًا. كانا يتورَّطان في كل أنواع الأشياء ويتجاوزانها، لكن مع ليليا كان الأمر مختلفًا.

أحيانًا ما كانت تمرُّ بفترات تنقطع فيها عن الشُّرب قليلًا، وتذهب إلى مُعالِج نفسيٍّ، وتتلقَّى تشخيصات وعلاجات مناسبة تمامًا -أو معقولة على الأقل- لبعض الوقت. تشعر حينها أنها فهِمَت شيئًا ما، وكأنها تنظر إلى حياتها من خارج ذاتها. فَهِمَت، مثلًا، عاداتها غير الصحية وكيف أنها تقترب من الناس، أكثر من اللازم في الحقيقة، لحدِّ ضياع الصورة الكبيرة، والشيء الوحيد الذي كان بمقدورها رؤيته كانت نَفسَها، تنتحب، في مآقيها. كل التشخيصات كانت صائبة، كلُّها كانت خاطئة.

مختبئةً في رأس ليليا كانت خيبات الأمل، مدفونةً عميقًا في قرين دماغها، في لَوزَتي حلقها، في مِهاد بصرها، في قشرتها الحوفية، كالألغام، وهي خيبات غيَّرَت من نظرتها إلى العالم.

عند النظرة الأولى، قد تبدو حياتها عشوائيَّة تمامًا وتفتقد لأيِّ نوعٍ من الروتين، لكن إلن كانت تدرك أن كل يوم يأتي بفعله المتصاعد، بلحظاته الفاصلة، بذروته. ثم تظهر رئةٌ، تمتلئ بالهواء، وبمزيد من الهواء، ثم تطلق الهواء، بل وهواء أكثر، ببطء وثبات، حتى يحلَّ الليل. تبدأ الأيام وتنتهي، ويظلَّ مرض ليليا ضمن حدود مُعيَّنة وكل شيء داخل هذه الحدود كان مقدورًا عليه.

كان عَجزُها عن الذهاب إلى البنك مشكلةً، لكن إلن كانت قادرة على حلِّ ذلك عبر الوصول إلى حسابها البنكي على الإنترنت من أجلها، أو الاتصال بمركز خدمة العملاء.

كان ذلك داخل الحدود المعيَّنة.

القراءة عن الفوائد العلاجية للكركم وفتح برطمان توابل، ورؤية ظلِّ اللون الأصفر -ذلك اللون المضيء تقريبًا الذي يلتصق بكل شيء- وفرك كل موضع به. على نفسها وعلى مائدة المطبخ والستائر وفي شَعرها، على سجائرها وعلى ألواح النوافذ.

الأصفر.

التداخل والتَّشوُّش مع ابنتها كان أمرًا مُعتادًا للغاية ويحدث منذ وُلِدَت إلن. عادي. معروف. كانتا صديقتين عظيمتين.

خارج الحدود المعيَّنة.

بعد أن رأتني عبر النافذة، بدأ روتين ليليا في التداعي. لحظات مفصلية شاردة أوقفت توسُّع الرئة وانتكست ليليا. قرَّرَت إلن أنهم ينبغي ألَّا يعرضوا المسرحية. لم تكن تعرف كيف تجري هذه الأمور؛ ولذلك أرسلت للمخرج رسالة بريد إلكتروني فحسب، وقالت إنها تُلغي الموضوع بأكمله. لم تدرك كيف سيؤثِّر قرارها على حيوات أناس آخرين؛ ممَّا أثار غضب المُخرج.

كانت قد باعت مسرحيتها إلى المسرح بالفعل، وتلقَّت اثنتين من ثلاث دفعات، وكان هناك أشخاص على جدول الرواتب. كانت مُصمِّمة المَشاهد قد شيَّدَت الأكشاك، والعاملون في قسم الباروكات قد بدؤوا عملهم. كل شَعرة في كل باروكة كانت تُخاط بيد شخص يُدفع له بالساعة. ألا تدرك كل ذلك؟ ألا تعي بكل البروفات التي يكرِّر فيها الممثلون كلماتها على خشبة المسرح، بكل المعاني الدقيقة الكامنة فيها؟ ألا تعي بكل التدريبات اللازمة لزرع معنى دقيق مُعيَّن في لحظة معينة، بكل الانفعالات وكل التوجيهات؟

ألا تفهم أي شيء؟

أمِّي مريضة، حاولت التبرير.

سيستمرُّ الممثِّلون برُضَّعٍ أمواتٍ في أرحامهم إذا كان هناك عَرضٌ، قال هريذر، وأغلق الخطَّ.

لم أرسل ردًّا على رسالة اعتذارها، ورغم أنه خطرَ لها أن تتواصل معي، إلَّا أنها لم تفعل. ثم في الليلة الافتتاحية لمسرحيتها، كانت تجلس في غرفة الانتظار في جناح الطِّبِّ النفسي في المستشفى أمُّها.

كان طبيبها قد نصحهما بالذهاب إلى هناك، وارتابت إلن في ذلك لأنه كان يأمل بشدَّة أن تترك إلن أمَّها في المستشفى بضعة ليالٍ. رغم ذلك، لم تَقُل أمُّها أيَّ شيء قطُّ بشأن إيذاء نفسها أو أي شخص الآخر، وبالتالي كانتا تعودان إلى المنزل معًا في كل مرَّة.

سألتهما الممرضة المسؤولة عن نوع الدواء الذي تتعاطاه، وهل تنام أو تأكل على الإطلاق، وأجابتها إلن أن أيًّا منهما لا تنام أو تأكل أبدًا وأن ليليا في حاجة ماسَّة للمساعدة.

إنها منهارة تمامًا، ساعِدِيها أرجوكِ، لأجل الرَّبِّ، قالت إلن، ونظرت ليليا إليها بارتياب من تحت قلنسوة كِنزتها.

ربما أنت مَن تحتاجين إلى مساعدة؟ همَسَت الممرِّضة، وأغلقت إلن عينيها. تداعت إلى مقعدها وجلست هناك، بلا حراك. تصلَّب وجهها كجبيرة، امتلأت جمجمتها بالخرسانة التي تصلَّبَت حينها. عندما فتحت عينيها مجدَّدًا، كانت الممرِّضة قد ذهبت لاستشارة الطبيب، وهو ما أدركت إلن أنه إشارة طيِّبة.

تطلَّعَت أمُّها إليها وبدأت في الارتعاش بِفعل ضحكةٍ مكتوبة. بَدَت جميلة وتشبه الأطفال على نحوٍ غير معقول. كانت إلن تشعر أحيانًا

وكأنها حوتٌ نبذه المحيط على الشاطئ بجوارها. كتلة مُشوَّهةً، ميِّتة لأسباب طبيعية. لحم يكفي قرية كاملة.

عندما كانت إلن في العاشرة من عمرها، أو في الحادية عشرة ربما، ذهبت هي وليليا إلى شبه جزيرة سنايفلسنس معًا. كان ذلك في الصيف. في السابق قبل أن تعجَّ البلاد بالسُّيَّاح وعندما كانت الكتلة الجليدية ما تزال بادِيةً في الأفق. انطلقتا في رحلة نهارية. بدأتا طريقهما عند انبلاج الفجر في السيارة الصغيرة المنبعجة التي كانت لدى ليليا.

كانتا في مزاجٍ طيب، تنصتان إلى محطة الراديو التي تبثُّ أغاني قديمة وتقضمان حلوى القِرفة على معدة فارغة. كانت ليليا تُفكِّر في شخصٍ ما، ويكون على إلن تخمين مَن هو.

هل هو شابٌّ؟

نعم.

هل هو أيسلندي؟

لا.

هل هو موسيقيٌّ؟

نعم.

هل أسمع أغانيه؟

أحيانًا، رغم أنَّكِ قد تنكرين ذلك...

هل هو من كندا؟

نعم.

چاستن بيبر؟

كيف عرفتِ؟

سهل.

استمرَّتا في القيادة حتى شبه الجزيرة، وانطلقتا قُدمًا إلى الكتلة الجليدية لتناول الغداء في الهواء الطلق تحت الشمس. ثم كانتا ستذهبان إلى شتيكشولمر، حيث أرادت ليليا أن تشاهد عرضًا سيقدِّمه أحد معارفها في متحف الفنون الذي افتُتِح هناك.

كانت هناك لافتة على جانب الطريق كتبَ عليها أحدهم *Hvalreki* -حوت طريح الشاطئ- وسهمًا يشير إلى الشريط الساحلي. أوقفت ليليا السيارة وترجَّلتا منها، وسارتا إلى الشاطئ. كانت الشمس تسطع عاليةً ودافئةً في السماء، لكن ما يزال هناك ما يكفي من البرد في الهواء لحدِّ أن إلن أقفلت سحَّاب معطفها ومَضَت في طريقها عبر حِزام الأعشاب بيديها في جيبها.

غرَّدَ طائر زِقزاق ذهبيٌّ وسط الأعشاب الأصفر الجافَّة. كانت قد تحوَّلَت إلى الأخضر في بعض المواضع، لكن في مواضع أخرى كان ما تزال هناك لُطَخ من الجليد الذائب. عندما تسلَّقَتَا الجدار الحجري وهبَطَتَا إلى الجانب الآخر، انغرس حذاء إلن الرياضي في الرمال الوردية، ووضعت يدها على أنفها بسرعة.

جيفة حوت عنبر مُتعفِّنة تستلقي على بُعدِ مائة متر تقريبًا. كانت العظام مبعثرة في الأنحاء بسبب حيوانات وأناس على السواء، والجلد ما يزال سليمًا في بعض المواضع، وقد صار أبيضَ ولَزِجًا بعض الشيء. كان هواء البحر المنعش يحمل معه رائحة عفن التَّفسُّخ.

انظري، ها هي الجمجمة! قالت ليليا، راكضةً على الرمال.

تشبه كرسي مريح! صاحت واتَّخَذَت مقعدها على الجمجمة، مُلوِّحَةً لإلن.

كان متحف الفنون يقع على أحد المنحدرات. في الداخل، كانت أرضية الجاليري على شكل رَغاوٍ خضراء، والنوافذ ممتدَّة على طول الحائط بأكمله. وراءها على البُعد، يتلألأ المحيط مُتحطِّمًا على الجلاميد فيما رؤوس الفُقمات تظهر وتختفي والنوارس ذات الظهور السوداء تطير في جماعات حاشدة. في النهاية البعيدة من القاعة يقف فنان العرض، رجل في الأربعين من عمره تقريبًا يرتدي حُلَّة من الصوف الخشن و ياقة مدوَّرة بلونٍ أحمر- بُنِّي، ويُولي ظهره إلى الجمهور، عشرة أشخاص تقريبًا يقفون انتظارًا لما سيحدث تاليًا.

بعد برهة قصيرة، استدار الرجل إلى الجمهور الواقف. كانت عيناه مغلقتين. أخرج يديه من جيبه، رفعَ واحدة وفتح قبضته بأصابع مرتعشة. ثم رفع الأخرى وكانت ترتعش أيضًا. هزَّ رأسه وحينها بدأ كتفاه في التشنُّج. رفع يداه وبعد لحظات، كان جسده بأكمله يرتجف بعنف. صرخَ وبدا أنه يحاول السيطرة على نفسه، لكن بلا جدوى.

ازداد الارتجاف سوءًا، تحوَّلَ إلى صُراخ. بدا وكأنه يتعرَّض لهجوم. لكن لم يكن هناك شيء.

أودعوا ليليا في وحدة الرعاية الاستجمامية. وقفت إلن على الرصيف أمام المستشفى وتخيَّلَت المشهد الأخير قبل الفاصل- الأب يتعثَّر مع الجدِّ، الابن يتشاجر مع العَمِّ، والحفرة التي تنفتح تحتهم، تلتَهِمُ خشبة المسرح بأكملها، ثم يحلُّ الظلام.

(35)

في هذا الموضع من القصَّة، ربما يجدر بي الاعتراف بشيءٍ ما. أنني، من اللحظة التي رأيتُ فيها إلن في المسرح حتَّى الليلة الافتتاحية لمسرحيتها، كنتُ أتجسَّس عليها وعلى أمِّها.

ليس بشكل ثابت بالطبع، لكن من فترة لأخرى. لم أكن أقف بسيارتي في باحة الانتظار في الظلام وأتلصَّص عبر نوافذ منزلهما عبر منظار مُكبِّر، لكنني عثرتُ على كل شيء يمكن تَخيُّله على الإنترنت. قرأتُ نَعيَ أفراد عائلتهما، وأحيانًا ما كنت أقتفي أثرهما. حدث هذا، نعم. حدث أنني كنت أجلس في سيارة باردة في باحة الانتظار وأراقب الأضواء المُرتعشة في نوافذ منزلهما، ونعم، ربما استخدمت منظارًا مُكبِّرًا.

في العموم، كنتُ أفكِّر فيهما وأضعهما في شخصياتٍ، صارت عزيزةً عليَّ. أنفخ فيها الحياة، إذا شئتَ القول، وأشعر أنني أعرفها جيدًا.

وكلما شعرت أنني أعرفها بشكل أفضل، كلما أصبح الاقتراب منهما في الحياة الواقعية أكثر عبثًا.

بعد العرض الأول، قدتُ سيارتي في دوائر حول بنايتهما وفكَّرتُ في مسرحية إلن وكتابٍ لألفور فينسون. "غبار"، كان اسمه وربما كان أقلَّ كتاب له حقَّق شهرةً بين الناس. كان رواية قصيرة حول رجل في منتصف العمر يهيم في أرجاء المدينة بحثًا عن شيءٍ يعطي حياته معنى.

كأميرٍ في حكاية خرافية، يطلب النصيحة من عرَّافين مختلفين، لكن الإجابات التي يجدها لديهم خاطئة بل وتزيد من تِيههِ. وقبل نهاية الكتاب بالضبط، نكتشف أن زوجةً وأطفالًا صغارًا يقبعون في المنزل في انتظاره، وأنهم جائعون.

لأنه بدونه، كيف لهم أن يُطعَموا؟ تساءلت، وحينها رأيتها تمرُّ بي. كانت لغة جسدها -بلا شكٍّ- لغة شخصٍ لم يَعُد قادرًا على تحمُّل ما يحلُّ به. طفلة بائسة، قلت لنفسي، ولوهلة، فكَّرتُ في عرضِ توصيلةٍ عليها مُجدَّدًا.

لم أفعل.

اتَّخذتُ قرارًا بنسيان إلن وأمها ومآسيهما.

كما لو أنه ليس لديَّ ما يكفيني منها.

عدتُ إلى البيت وخطوت في دوائر وفتحت الصناديق وألقيت نظرة سريعة فيها وأغلقتها مجددًا وأنهيت طلبات المشاريع وأنجزت أشياء ومرَّ الوقت. أيام، أسابيع، شهور.

هيلين، المرأة التي في الطابق العلوي، تطلب منِّي دائمًا إصلاح المصباح المكسور في بَسطة الدَّرَج. أقول "لا" فحسب. اكتشفتُ نوعًا

جديـدًا مـن بسـكويت الشـاي، رديء بمـا يكفـي للاحتفـاظ بـه في خزانـة المطبـخ لأكـثر مـن نصـف سـاعة، وجيـد مـع ذلـك لحـدٍّ أننـي لا أنسـاه قبـل أن تنتهـي صلاحيتـه.

اقتَنَـت المـرأة التـي في الطابـق العلـوي قِطًّـا دون التحـدُّث معـي أولًا عـن الأمـر ووبَّختهـا، لكـن سرعـان مـا تصالحنـا. لا بـأس بهـا. القـطُّ شيء مُزعـجٌ للغايـة، يجـيء ويـروح كـما يشـاء ولا يهـدأ حتـى أمنحـه شـيئًا ليأكلـه.

بلـون برتقـالي زاهٍ وفـروٍ كأي شيء بعينـين جسـورتين قادرتـين عـلى الفوز في أيِّ مسـابقة تحديـق. تدعـوه "فـراوني". أو "بـراوني". اسـم بــ "او" فيـه. ربمـا "ميـاوي". ابنهـا الأكـبر هـو مَـن سـمَّى القـطَّ. الأصغـر مـا يـزال ضئيـلًا والأوسـط لا يتحـدَّث كثـيرًا، لكننـي لسـت متأكِّـدةً كـم ابنًـا لهـا بالضبـط.

ربما اختلطت عليَّ الأمور.

(36)

تمشي إلن بمحاذاة الشاطئ بالتوازي مع طريق سايبراوت، مُستغرقةً في أفكارها، قافزةً إلى مصدَّات الأمواج من لحظةٍ إلى أخرى. جذور شعرها الفاتحة قد نَمَت إنشات قليلة، وشعرها ذو اللونين يتطاير بفعل الرياح. ترتدي معطفًا قطنيًّا مُتهدِّلًا بمقاس كبير عليها وسروال چينز. المعطف ممتلئ بالثقوب، وفي قدميها حذاءٌ رياضي أبيض مُتَّسخ. ترتدي سماعات رأس. تستمع إلى موسيقى وتُدخِّن باستمرار بينما تتقافز على المصدَّات البحرية نزولًا وصعودًا، ولا توجد سحُب في السماء، لا شيء سوى الزُّرقة وشمس الشتاء، المتدلية نحو الأفق.

في الليلة الفائتة، قابَلتُ صبيًّا كانت تتحدَّث معه على الإنترنت. يعيش في سقيفة في حيٍّ صناعيٍّ ويُدخِّن الأفيون ويعرف كل شيء ينبغي معرفته عن الإدمان والمفاهيم السيكولوچية ويرتدي ملابس ركضٍ ولديه جلدٌ ناعم كالزُّبد وأمُّه في السجن، ويجلب له أبوه

الأفيون، ويحتفظ بعنكبوت ذي فرو في صندوق زجاجي بضوء تحت أحمر.

دخَّنَا غليونًا زجاجيًّا طويلًا وسط إضاءة حمراء، اختفت الخردة التي تملأ سقيفة الصبي، وصارت نعومته نهرًا ثم انطرحا أرضًا معًا، ذاهِلَيْن ومُخدَّرَين على أن يبدآ في التقبيل.

عندما استيقظا في الصباح، وضعَ إبريق قهوة على النار وأخبرها، بصوتٍ رقيق، صادر من الحلق، كما لو أن فمه كان متراخيًا بشدَّة على أن ينحت الكلمات، أن تنتبه لأنه مصابٌ باضطراب الشخصية الحَدِّيَّة، ودائمًا ما يقع في حب امرأةٍ ما ليست موجودة، إمَّا أنها علاقة منتهية بالفعل، أو ستظهر قريبًا، وأغضب ذلك إلن.

هل يظنُّ قالب الزُّبدة هذا ذو ملابس البوليستر الرخيصة أن بمقدوره رفضي؟ مَن يظنُّ نفسه بالضَّبط؟ مَن يظنُّها؟ ثم ارتدت ملابسها على عجلة واندفعت خارجةً واتَّجهَت إلى المنزل عبر طريق سايبراوت.

صارت تغيب عن المنزل كثيرًا مؤخَّرًا. تُقابل أناسًا وتتعلَّم أشياء جديدة أثناء ذلك- كيف ترجُّ علبة البيرة وتخرقها بمفتاح، ثم ترشُّها في فمها؛ كيف تجد طعامًا سليمًا في سلال القمامة وراء المتاجر وبتلك الطريقة، لا تضطر لإنفاق المال على البقالة.

نصَحَتها إحدى الفتيات التي قابَلَتها لتوِّها، تكبرها ببضعة أعوام، أن ترحل عن البيت. قالت إن إلن لا تدين لأمِّها بشيء وأن أمَّها إنسانة بالغة ومسؤولة عن جميع قرارتها. أوشكت إلن على ضرب الفتاة، لكنها شعرت أن ما تقوله صحيح.

أدين لها أنها ولدتني، قالت، مرتبكة قليلًا، وأجابتها الفتاة أن هذا هراء مَحضٌ، وأنها ينبغي أن ترحل في أقرب وقت. قبل فوات الأوان.

لكنها وأمَّها كانتا قد ابتعدتا عن بعضهما البعض بعد أن عادت ليليا إلى البيت من المستشفى. ربما ليس كثيرًا، لكن بما يكفي حتى تستطيع إلن التنفُّس بشكل أفضل. كانت لاحظت، مثلًا، أن أمَّها حتمًا لديها مشروع صغير ما يقترب، لكنها منعت نفسها من التورُّط فيه.

ذات صباح، كانت ليليا قد أفرغت كل الخِزانات والدواليب في الشَّقَّة، ووضعت كل الملابس والأواني الخزفية التي كانت مُخبَّأة في حاويات التخزين والأدراج على الأرض. افترضت إلن أنه كان التنظيف من أجل فصل الربيع. شكل من أشكال التطهُّر.

تناثَرَت الأشياء وتكوَّمَت على بعضها البعض، وكانت أمُّها تنبطح في موضعٍ ما تتأمَّل في شيءٍ قد وجدته لتَوِّها. تطهو إلن العشاء لكلتيهما ولا تسألها عن أي شيء بخصوص حملة النظافة من أجل فصل الربيع. صارت أمَّها نفسها مُجدَّدًا، ومُتحفِّظة قليلًا ربما.

لاحقًا، عندما أصبحت إلن امرأة بالغة وتفكِّر في كل هذا بأثرٍ رجعيٍّ، لاحَظَت تعبيرات الخِزي مُتجسِّدة في الوجه. الهروب في عينيها.

تغسل إلن الصحون كما اعتادت من قبل، ثم تخطو إلى غرفة نومها لتدردش مع الصبي على الإنترنت وربما تكتب بضعة فقرات من رواية تعمل عليها، تنقضي بضعة أيام ثم تتمشَّى مُجدَّدًا بمحاذاة طريق سايبراوت، تُجهَد قليلًا، ثم تعود إلى البيت وقبل أن تخطو إلى غرفة المعيشة يَتكشَّف لها الأمر.

إذا لم تكن تعرف التفاصيل، فقد تظنُّ أننا نتحدث عن واحدة من تجارب الدومينو المنزلية تلك حيث تدفع شيئًا ثم ينطلق وينهار كل شيء، وحينها يمكنك الوقوف والاندهاش كيف أن السبب يصير نتيجةً والنتيجة تصير سببًا وهكذا بلا انقطاع، لكن لا شيء يتعاقب، كان كل شيء ساكنًا. لم يحدث شيء سحريٌّ.

اختَفَت. تتوقَّع إلن أن تجد جُثَّتها في المغطس. تتوقَّع أن تجد جُثَّتها في غرفة النوم. تتخيل الأمر بوضوح شديد لحدِّ أن الدموع تنساب إلى عينيها وتهرع في أرجاء الشقة، لكن ليليا لا توجد في أي مكان- ليست في الشقة.

لم تكن ليليا قادت السيارة لسنوات، ومع ذلك اختفت السيارة من باحة الانتظار في الخارج. تتَّصل إلن بالطبيب، تتَّصل بالشرطة، تتَّصل بجدَّتها، تتَّصل بصديقتها الجديدة، تتصل بالصبي الذي يشبه الزبدة، تتصل بشركة الهاتف، تتصل بالبنك. أُفرِغَ حساب إلن البنكي. أُغلِق حساب ليليا.

بعد بضعة أيام، تكتشف أن أمَّها باعت الشَّقَّة والسيارة. أن كل شيء كان قَيدَ التَّخطيط منذ باعت إلن المسرحية وراوَدَت أُمَّها فكرة الإبحار عبر نهر بامبا في الشَّفَق.

ستُأكَلُ حيَّةً، تقول صديقتها، وسيكون هذا أفضل ما حدثَ لكِ، وتصفعها إلن. صديقتها في غاية الجنون لحدِّ أنها تضحك فحسب وتردُّ لها الصفعة، وكذلك هي إلن لحدِّ أنها تهجم على صديقتها، الأكبر منها حجمًا بضعفَيْن، والأقوى منها؛ وبالتالي تطرحها أرضًا بسهولة.

تُثبِّتها صديقتها بين ركبتيها، تمسك بها بقوة وتخبرها أن تحاول أن تنضج قليلًا، أن تتوقَّف عن تأفُّفها اللعين، تضربها بضعة مرَّات ثم تُقبِّلها على فمها.

تخبرها أن ترتخي وتنطلق

أن تبكي وتردَّ الضربة

أن تعود إلى الأرض، وتغرق، وترفض ما لا تحبُّه.

كشخص طبيعي.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

(37)

إلين، كُتب

"كتاب الغابة"، مجموعة من الحكايات الشعبية لچون أرناسون، "سالكا ڤالكا" لهالدور لاكسنيس، "آنَّا كارنينا"، كتاب ضخم بأسماء أمِّي وجَدَّتي وأم جدَّتي مكتوبة على الغلاف الداخلي. لم أجد اسمي. كانت هناك ثلاث صور فوتوغرافية غير مؤطَّرَة في قاع الصندوق. صورة تعميد لي. حزينةً وخائفةً، كان شعري مُضفَّرًا بمشابك، الإنجيل في يدَيَّ، وأنا مُتيَّمة بهاتين اليدين.

بيضاوين وناعمتين ومصقولتين وجديدتين. لا تشتركان في شيء مع اليدين اللتين تحملان الصورة. الصورتان الأُخريان لم تؤخذا في ستوديو تصوير، بل مُزِّقَتَا من ألبوم صور ووُضِعَتا هناك مع كُتبي.

كما لو أن جدَّتي كانت تعرف أن الألبوم سينتهي به الأمر في مقلب النفايات، كما لو أنها أرادت إنقاذ هذه الصورة بالذات. التقطت إحدى الصورتين في يوم مشمس في حديقة خلفية ما. كان الجدُّ عاري الصدر، سرواله مرفوع لأعلى، يرتدي نظَّارات شمسية ورأسه منحنٍ في اتجاه الجدِّ. كانت هي ترتدي ثوب السباحة وتبتسم. الصورة قد تعرَّضَت للشمس بشكل مُفرط لحدِّ أنه بالكاد كان بمقدوري تبيُّن ابتسامتها، شعرها أشقر جدًّا لحدِّ أنه تداخل مع الضوء.

أمِّي في الصورة الأخرى، بتعبير جادٍّ على وجهها وحامِل لبضعة أشهر. تجلس على حافة الفراش في غرفة نومها في منزل الجدَّة، غرفة النوم التي ستصبح لاحقًا غرفتي. وجهها منتفخ وعيناها بحجمين مختلفين. كِنزة بيضاء منمنمة تستقرُّ على ركبتيها.

كما لو أنها تحاول إخباري شيئًا ما. هذا ما تقوله النظرة في عينيها، وشفتاها تستديران حول كلمة. في ماذا تفكِّر؟

إلين، مُتفرِّقات

صندوق مجوهرات مصنوع من الخشب برسومات أعشاب الجُرَيْس على سطحه، ممتلئ بالحُليِّ والأشياء الرخيصة. أقراط مِشبكية مصنوعة من البلاستيك، مُدلَّاة مُلطَّخة وسلاسل معقودة. كرة ممتلئة بالماء مغلَّفة بشَعري. بُنِّيَّة، كثيفة، خشنة. مِحفظة جلدية لم أرها من قبل قطُّ. هارمونيكا صدئة. قطعة من الأوبسيدان البركاني الأسود بحجم قبضة يد. مفتاح. علبة قصدير صغيرة ممتلئة بمجموعتين من المناشف الورقية المزخرفة. كانت الرطوبة قد تسلَّلَت إلى الصندوق وتعفَّنَت المناشف. رأس من الطمي. كنتُ قد أضفت خرزات زجاجية محلَّ العينين. تمثال صغير مكسور لكلب بودل. المحفظة الجلدية

جافَّة وصفراء، يخطر لي أنها كيس صَفن ذاوٍ، قديم، يتشقَّق عند لَمسي له، يتفسَّخ.

إلين، أوراق

يوميَّاتي ورزمة من الأوراق. صارَ الورق الذي كتبتُ عليه رقيقًا، كورق التحميص، هشًّا مع مرور الوقت. كانت الرطوبة قد تداخَلَت مع الحبر وبعض الكلمات غير مقروءة الآن. القصة الأولى في الرزمة تدور حول الأقزام. كنتُ في الرابعة عشرة من عمري عندما كتبتُها، وتنتهي باستيقاظ الشخصية الرئيسية- كل شيء كان مُجرَّد حُلم.

أتذكَّر عندما قرأتُها على جدَّتي، قالت إن كل القصص تنتهي هكذا في الحقيقة، ولم أفهم ما تعنيه، اعتقدتُ أنها تقصد أن القصَّة مسروقة. لكن عندما أفكِّر في الأمر الآن، أفهم بالضبط ما كانت تعنيه.

(38)

السماء رماديَّة وشاحبة، ولا يوجد بشر كثيرون في صباح الأربعاء هذا. أمضي عبر شارع بانكا، ثم أتوقف بغتةً. هذه الحركة التلقائية، القدمان ترتفعان بالتناوب وتُبطئان حركتي عبر شارع بانكا، لم تَعُد تعمل. الحركات اللا إرادية... ما هي الكلمة المناسبة؟ لا تعمل. الناس يمرُّون بي، ينظرون بتفحُّصٍ إلى وجهي.

كل شيء يتبدَّل. في لحظة، ولا أعرف لماذا. تغادرني الكلمات، سياقها يغيم ويلتبس. تعريفاتها تفقد سلطانها. ثم تبدأ قدماي في التحرُّك مجددًا. تمشيان معي. إلى أين أنا ذاهبة؟ إلى مكتب البريد، ربما؟ هل أنا ذاهبة لإرسال خطاب؟ إلى أين سأرسل خطابًا؟ إلى مَن كتبته؟

أتذكَّر فور دخولي مكتب البريد. أنتزع القسيمة بانتصارٍ من حقيبتي وأخطو نحو الفتاة على الشباك.

عليكِ أن تأخذي رقمًا، تقول، وأمدُّ القسيمة إليها.

لا، لا بُدَّ من رقم، تقول وتلوِّح بيدها في اتِّجاه شيءٍ ما عند المدخل.

أحمل رقمًا، أقول، وتتنهَّد الفتاة. يصيح أحدهم أنه لا بأس. أستدير بنظري، أرى رجلًا مُلتحيًا يحمل طفلًا صغيرًا. يبتسم لي وأبتسم له. تجلب الفتاة طَرْدي. إنه مجلَّة علمية لديَّ اشتراك فيها. أتذكَّر الآن.

في الباص في الطريق إلى البيت، أعثر على ترجمة لمجموعة شعرية لتيد هيوز في حقيبة يدي وأشهق. نسيتُ المكتبة. يوشك الباص على الوصول إلى البيت، لكنني أنهض رغم ذلك، أقرِّر الرجوع بطريقةٍ ما، لكن سرعان ما أدرك أن الأوان قد فات.

هل أنتِ بخير؟ تسألني المرأة الجالسة بجواري.

المكتبة المُتنقِّلة، أقول، لا أعرف ماذا أعني؛ يمكنني سماع غرابة ما أقوله، أريد أن أفسِّر، لكن لا أستطيع. يتوقف الباص، وأتعرَّف على محطتي، أهرع نازلةً.

المكتبة المُتنقِّلة؟ أغمغم لنفسي. من أين جاءت هذه الكلمة؟ أسيرُ مباشرةً نحو المنزل وأتنهَّد بارتياحٍ عندما أغلق الباب ورائي. عدتُ إلى ملاذي الآن.

ماذا أكون؟ أتشمَّم ما حولي، أُقلِّب الأوراق
أتتبَّع لطخة باهتةً في الهواء إلى حافة النهر
أدخل الماء. مَن أنا لأشطر
حبَّة الماء الزجاجية فيما أتطلَّع لأعلى وأرى
قاع النهر فوقي مقلوبًا بصفاء شديد.

... أفكِّر، لكن من أين جاءت هذه الأسطر ولماذا؟ كانت نَبْتاتي تموت واحدةً بعد الأخرى. أولًا التينة الكبيرة في غرفة التلفاز، ثم زنبقة التنين في غرفة المعيشة، وبعد ذلك، نبتة الطماطم في المطبخ. لا أعرف ماذا ينبغي أن أفعل بها، لا أشعر أن رميها في القمامة أمرٌ صائب، لا أستطيع إجبار نفسي على التطويح بها في الحديقة، حيث ستذبل تمامًا، ببطء وثبات في أُصُصِها، على أمل أن تتحوَّل إلى سماد في التربة في النهاية. كم سيستغرق ذلك؟

أبحث عن دفتر يومياتي لكنني لا أجده على الفور. عمَّاذا أيضًا كنتُ أبحث؟

أتطلَّع عبر النافذة إلى الخارج وأرى طيور الرَّدون. كانت ثَملة بفِعل ثمار التوت المتخمِّرة ولا تخاف من القطِّ الذي أراه الآن. يستلقي تحت السياج الأخضر المُحفحِف، عيناه كصحنَين في وجهه المُتسمِّر.

بالطبع، لا يتحدث المرء عن وجوه الحيوانات، بل يستخدم كلمات مُعيَّنة مثل "الخطم" أو "البوز" لوصف شيء ليس سوى وجه. تتمتَّع الحيوانات بصفة الوجه أكثر ممَّا يفعل الناس، أعتقد. الوجوه غير الغريبة للغاية لحدِّ أنه بالكاد يمكنك تَبيُّن ملامحها المُمَيِّزة. أقنعة صغيرة مسبوكة بالموت.

يصادف الناس رياحًا في وجوههم، عواصفَ في وجوههم، سَكينَةً في وجوههم، أكاذيبَ في وجوههم. طقمًا خزفيًّا كاملًا في وجوههم. طقم خزفي من ألف قطعة برسومات طيور أنتجته شركة دنماركية ما. تشقَّقَت الطبقة الأساسية من الطلاء الأزرق الخفيف.

الحيوانات تأكل. الناس تقتات.

الحيوانات تشرب. الناس تَلعق.

الحيوانات تموت. الناس تُقتَل.

المرأة في شقَّة العِلِّيَّة هي صاحبة ذلك القطِّ. طلبتُ منها عدة مرَّات أن تُعلِّق جرسًا على رقبته. تعدني المرأة بفعل ذلك لكنها أبدًا لا تفعل. إنها لطيفة معي. تطمئنُّ عليَّ أحيانًا وتسأل عن حال خاصرتي عندما نتقابل صُدفةً في غرفة غسل الملابس.

في بداية انتقالها إلى هنا، كُنَّا نجلس أحيانًا ونحتسي القهوة معًا. المرأة أمٌّ عزباء ورغم أنها لا تحكي التفاصيل أبدًا، يمكنني أن أتبيَّن من كلماتها أن والد الأطفال ليس في الصورة حقًّا.

اسمها لينا، أو يلينا. أو ربما هيلينا. شيءٌ ما بحرف (ي). إلن؟ يتَّخذ قطُّها مكانه، يلوي مؤخرته من جانب إلى آخره، ثم ينقضُّ على طائر الرَّدون حيث يستلقي ثمِلًا على ظهره في كومةٍ من الأوراق الخمرية. أضرب على لوح النافذة، أُجفلُ القِطَّ قليلًا، ويتطلَّع لأعلى لكنه لا يسمح لي بتشتيت انتباهه.

حامل مُنخفض لعين، أقول وأعرف أنني أقصد شيئًا آخر. أغلق الستارة حتى لا أرى هجوم القطِّ.

كانت لديَّ هذه الستائر المصنوعة خصيصًا من أجلي، لكن لا أتذكَّر من أين أو كيف جاءت. أعرف أن هناك حكاية وراءها، رحلة إلى تركيا أو البرتغال. الستائر صفراء ومُزخرفة وتليق بقصر. هناك قصَّة ما وراءها. هناك أيضًا حكاية وراء الشخص الذي صنعها.

عمَّاذا أبحث مُجدَّدًا؟ دفتر يومياتي. سأدوِّن شيئًا خَطرَ على بالي، بضعة كلمات لستُ واثقة إن كانت كلماتي أم أنها من شيءٍ ما قرأته.

توجد أُصص يملؤها التراب على نافذة المطبخ. لم يَعُد ينمو فيها شيءٌ لكنني ألمح شيئًا يتدلَّى من السلسة التي تمسك بالأصيص. شيءٌ يلقي بظلاله في كل الاتِّجاهات، صغير وكثيف. أقف على أطراف أصابعي وأعتصره بين إصبَعيَّ.

إنها نبتة صغيرة لم أرها من قبل قطُّ. الأوراق خضراء زاهية ورقيقة، يبدو أنها تنمو من التشابك الكبير الوحيد في المنتصف. أتأمَّل في هذه الظاهرة من كل الزوايا، لكنني لا أرى بدايةً أو نهاية في أي مكان. أضع النبتة على التراب في الأصيص وأنساها على الفور.

أجد المرأة في غرفة غسل الملابس عندما أذهب إلى هنالك لجلب ملابسي. الغسَّالة فارغة.

كيف خصرك؟ تسألني الفتاة، وأجيبها أنه أفضل حالًا.

الصبيان عند جدتي، تقول المرأة ثم تقترح أن نحتسي كأسًا من النبيذ الأحمر معًا. أيًّا كان، إنها ليلة السبت، تقول، لكنني أجيبها بأنني ليس لديَّ نبيذ أحمر. أعود إلى شقتي لجلب الملابس لكنني أجد دفتر يوميَّاتي على منضدة الهاتف.

تيلاندسيا، أكتب.

تطرُق الفتاة على بابي. ترتدي تنُّورة منسوجة، وأرى قلادة من خرزات خشبية حول عنقها. شعرها معقوص في ضفيرة واحدة. تحمل زجاجة نبيذ وترفعها قليلًا. أرى بوضوح أنها تبكي.

إلن، إدًّا، هيدًّا، هيلجا، هيكلا، هِكِل، سِبكل، هيرا، هيلدور، هيدين، كيتن ؟

تجلس على مائدة المطبخ وتحدِّق في مُلصقات الملاحظات الصفراء الصغيرة على الحائط.

هل تعملين على شيء؟ تسألني، وأهزُّ كتفَيَّ.

لم أعد "أتكب"، أقول. "أكبت"، "أكتم"، "أمكت". أستسلم، يبدو الانزعاج على وجهي.

ألا تذهبين إلى الطبيب؟ تسألني الفتاة، ناهضةً لتجلب الكؤوس في الخزانة. تصبُّ النبيذ لنا، تتصرَّف كما لو أنها تعيش في شقتي.

لا أشرب! أتذكَّر بغتةً، وتجفل الفتاة. تَعرِضُ وضعَ إبريق القهوة أو عمل بعض الشاي، لكنني لا أحتاج إلى شيء. هناك قطع مغناطيس وصور فوتوغرافية على ثلَّاجتي. تشير المرأة إلى إحداها وتسألني إن كانت لي، هناك مع مجموعة من الأصدقاء في مطعم "بيتزا ديل بوبولو". أتطلَّع إلى الصورة وأرى بضعة نساء يتَّخِذن أوضاعًا غريبة لالتقاط صورةٍ لهنَّ أمام نافورة مياه في نهار مشمس. يرتدين ملابس صيفية خفيفة ويبتسمن بمجوهرات ضخمة وقصَّات شَعرٍ كبيرة الحجم والنسيم يتماوج حول رؤوسهن.

كنتُ نساءً عديدات، أغمغم، وتضحك الفتاة بصوتٍ عالٍ بلا داعٍ.

أخبريني عن الأمر، تقول وتسألني إن كان بمقدورها التدخين عند النافذة.

وراء التلفاز، متشابكةً مع الأسلاك، توجد نبتة أخرى. أكبر قليلًا من النبتة السابقة، أوراقها أطول وأكثر سُمكًا. أحرِّرُها وأمسكها في راحتي. تزنُ أقل من لا شيء.

يرنُّ الهاتف. موظف الاستقبال في مكتب الطبيب، يُذكِّرني بالموعد الذي حجزته لاحقًا ذلك اليوم.

هل تنمو النَّبْتات هناك خارجةً من نفسها؟ أسأل موظف الاستقبال.

هل تعنين مثل الأعشاب؟ يسألني.

لا، لا توجد جذور حتى، مجرد هذه الأوراق تنمو من المنتصف.

لا أعرف الكثير عن البستنة...

إنها نبتة منزلية، وجدتُها وراء التلفاز.

هممممم... يقول موظف الاستقبال، وأُغلق الخط.

أخطو جيئةً وذهابًا في أنحاء الشَّقَّة لزمن طويل بالنبتة في يدَيَّ ولا أعرف ماذا ينبغي أن أفعل. ثم أجد أصيصًا في غرفة المعيشة لا يحوي شيئًا سوى التراب داخله. أضع النبتة في التراب.

لا يزال الكتاب في جيبي. أجده صُدفةً بينما أبحث عن دفتر يوميَّاتي ذات صباح، وعندما أراه، أُطلق شهقةً واطئة.

فات الأوان جدًّا، أفكِّر، وأذهب للتأكُّد، لكن مهما أطيل النظر في التقويم، لا أستطيع التأكُّد من تاريخ اليوم. لستُ متأكِّدةً حتى في أيِّ شهر نحن. توجد شجرة عارية في الحديقة وتحتها، كومة أوراق بُنِّيَّة مائلة للسواد.

أواخر الشتاء، أفكِّر وأتطلَّع إلى ظهر كتاب المكتبة لكن في كل مرَّة أبتعد عن التاريخ أنساه وأقرِّر الذهاب إلى المكتبة على الفور.

الكتاب الذي يجب أن أعيده هو ترجمة صدرت حديثًا لمجموعة شعرية لتيد هيوز. لا أتذكَّر إن كنتُ قرأته. متى، أقول بهدوء، وأجفل عندما أسمع صوتي.

أنطلق بالكتاب في حقيبة يدي. سأعيده إلى المكتبة في وسط المدينة. تبدو محطة الباص وكأنها ابتعدت عن مكانها؛ ولذلك أقرِّر المشي. لن تستغرق المسافة أكثر من نصف ساعة والطقس صحو. البراعم على الأشجار تتفتَّح كأيادٍ خضراء صغيرة.

ماذا أكون؟ أتشمَّم ما حولي. أقلِّب الأوراق، أتتبَّع لطخةً باهتةً في الهواء إلى حافة النهر. أفكِّر بغتةً وأتساءل لماذا لا أخرج من المنزل كثيرًا. قد تظنُّ أن عقودًا كثيرةً قد انقضت منذ ذهبتُ إلى تمشية آخر مرَّة. تبدَّل كل شيءٍ كثيرًا. الآن هناك طرق بدلًا من مسارات التمشية، إلى ذلك، شيَّدوا مركزًا تجاريًّا حيث كانت حديقة عامَّة في السابق.

لا أعرف كم طالَ مشيي عندما أدركت أنني تائهة. لا أحد حولي. لا شيء غير السيارات تنطلق مُزمجرةً. ثم أخيرًا، رأيتُ أحدهم يسير نحوي من الناحية الأخرى للطريق- إنه صبي، ربما لا يزيد عمره عن عشرة أعوام. يجرُّ شيئًا وراءه في عربة، وعندما قطع الطريق ووصل إليَّ، رأيتُ أنه مُغطًّى بالحبر تمامًا.

اعذرني، أقول له، ويتوقَّف الصبي، عيناه الزرقاوان اللامعتان تُحدِّقان فيَّ من وجهه المُتَّسخ.

اعذرني، لكنني أريد الذهاب إلى وسط المدينة، أقول له، ويجيبني الصبي أن أستدير.

قد يستغرق الطريق وقتًا طويلًا مع ذلك، يقول. ساعتين ربما.

كم الساعة؟ أسأله حينها، ويجيبني أنه لا يحمل ساعةً، لكن ربما تكون السادسة صباحًا تقريبًا. بغتةً، تصمتُ حركة السيارات. أقول وداعًا للصبي وأستدير. بإمكاني سماع حركة السيارات مجدَّدًا، وأمشي في نفس الطريق عائدةً. دائمًا في اتِّجاه الشمس، أفكِّر.

في اتِّجاه الشمس، في اتِّجاه الشمس، في اتِّجاه الشمس. عليَّ أن أتلفَّظ بالجملة مرارًا وتكرارًا حتى لا أنساها. أتطلَّع عاليًا إلى السماء وأرى الشمس أمامي مباشرةً. في اتِّجاه الشمس، في اتِّجاه الشمس، في اتِّجاه الشمس. لكن لماذا ينبغي أن أذهب في اتِّجاه الشمس؟ ماذا يوجد هناك؟

كلماتي تصير عديمة الفائدة فور أن يتلاشى سياقها، كومة من القمامة. هناك الحديقة العامة وهناك مدار مُتوهِّج وهناك محطة الباص وهناك المدار وهو يقترب منِّي ويزداد ضخامةً ويُشعل كل شيء وكل شيء يتحوَّل إلى الأحمر البرتقالي وأزداد أنا سخونةً.

أدخل الماء. أفكِّر، مَن أنا لأشطر حبَّة الماء الزجاجية فيما أتطلَّع لأعلى وأرى قاع النهر فوقي مقلوبًا بصفاء شديد.

من أين تأتي هذه الكلمات؟ لا أتذكَّر، لكنها تستمرُّ في التقلُّب في رأسي يَصحبها إيقاع وصوت. صوتٌ عميق يتكسَّر إلى انتحابات وعواءات لاهثة بين الكلمات.

ماذا أفعل هنا في منتصف الهواء؟ لماذا أجد

هذا الضفدع مثيراً للاهتمام بشدَّة فيما أتفحَّص دواخله

الأكثر سِرِّيَّة وأجعلها دواخلي؟ هل تعرفني هذه الحشائش

وتُسمِّيني فيما بينها، هل رأتني

قبل أن أنتمي إلى عالمها؟ أبدو

منفصلًا عن الأرض وبلا جذور لكن ساقطًا

من اللا شيء صُدفةً. لا خيوط

تربطني بأي شيء. بمقدوري الذهاب إلى أيِّ مكان
يبدو أنني مُنحتُ حرِّيَّةَ
هذا المكان. ماذا أكون إذن؟ وتقشير
جُذاذات من لحاء هذه الأرومة المُتعفِّنة لا يمنحني
أي مُتعة أو فائدة، لماذا إذن أفعل هذا.
تتداخل نفسي مع كل ذلك بشكل عجيب جدًّا.
لكن بماذا ينبغي أن أُدعى وهل أنا الأول
هل يملكني أحدهم وعلى أيِّ شكل أنا،
هل أصير عملاقًا إذا انطلقتُ
إلى نهاية هذا الطريق متجاوزًا تلك الأشجار وهذه
حتى يقتلني الجَهْد الذي لا يمسُّ سوى حائط واحد داخلي،
وإذا جلستُ فحسب ساكنًا، كيف سيتوقَّف كل شيء ليراقبني.
أعتقد أنني في المركز بالضبط
لكن لا أرى حولي سوى جذور
وجذور، وجذور، وجذور، وها هو الماء يظهر ثانيةً
عجيب جدًّا، لكنني لن أتوقَّف عن البحث[1].

(1) قصيدة Wodwo لتيد هيوز- (المترجم)

أنا في المنزل مُجدَّدًا ولا أستطيع العثور على دفتر يومياتي. هل كان ذلك شيئًا كتبته أو شيئًا قرأته أو شيئًا على وشك كتابته دائمًا؟ لا أعرف، ولا أجد دفتر يومياتي، والمفكِّرات الصفراء الصغيرة قد اختفت منذ زمن طويل. لا أعرف من أين آتي بالمزيد.

أخطو في أرجاء الشَّقَّة وأقلب كل شيء رأسًا على عقب، أبحث، تبدو مُتعلَّقاتي وكأنها لا تُهزم، تضحك في وجهي، تسخر من أفكاري. أرفع الزَّهريَّة من الرَّفِّ. زهريَّة بورسلين صغيرة، مصنوعة يدويًّا. أنظر إليها وأعرف أن هناك حكاية وراءها. ربما شيئًا له علاقة بجدَّتي، لكن هذا لا شيء سوى حدس.

لم تَعُد هذه الأشياء تؤثِّر فيَّ، ثم أتناول الزَّهريَّة وأرميها على الحائط. أشعر بتحسُّن للحظات. ثم أجمع الشظايا وأغربلها، أمرِّرُ أصابعي على طول الحوافِّ المكسورة.

برفق.

هدأ صوت الرجل. الصيحات تستمرُّ لفترة في الهواء، لكنني الآن أسمع شيئًا يخشخش عند الباب ومفتاحًا يستدير في القفل.

هاللو؟ أسمع صوت امرأة مألوفًا يقول، وأسمع أيضًا صوت طفلة. صوت الطفلة يشبه جرسًا فَضِّيًّا.

إلين؟ تنادي المرأة، وأُوشكُ على إجابتها لكن هناك شيءٌ يسدُّ حلقي. ثم ها هي تقف في الرَّدهة، تذروها الرياح وفي كامل عافيتها، وهناك طفلةٌ تُغمغم بلا انقطاع.

إلين، عزيزتي؟ تقول وتنحني فوقي.

لماذا تستلقين على الأرض، إلين، عزيزتي، تقول. ألم تسمعي الهاتف؟

عينا المرأة مُتْرعتان بالدموع، وأريدُ إجابتها لكنني لا أستطيع. أريد أن أحكي لها عن كل الأشياء العجيبة التي تحدث لكن في حلقي، حيث جرى نهرٌ فيما يمضى، ينتصب الآن سدٌّ. تتراكم الكلمات في نبعٍ داخلي ثم بغتةً، أرى الطفلة.

تتشبَّثُ الطِّفلة بالمرأة، تقف هناك على قدمين مُرتعشتين. يستغرقنا الصمت وننظر إلى عينَيْ بعضنا البعض، عبر حبَّةٍ زجاجية، ثم نلتقي في المنتصف.

مرحبًا، تقول الطفلة، دون أن تفتح فمها:

مرحبًا، صديقتي القديمة، تُسعدني رؤيتك ثانيةً. افتقدتُكِ، لكنني أدرك الآن أنه لا داعي لذلك. مرحبًا، صديقتي القديمة. مرحبًا.

مثل أجراسٍ فِضِّيَّة.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

نبذة عن الكاتبة

كريستين إريكسدوتر

روائية حازت العديد من الجوائز، وكاتبة قصص قصيرة، وشاعرة، وكاتبة مسرحية من ريكيافيك، أيسلندا. فازت روايتها "قبضة أو قلب" بجائزة الأدب الأيسلندي عام 2017، وجائزة أدب المرأة الأيسلندي عام 2018، وترشَّحَت لجائزة مجلس الشمال الأدبي عام 2019. حازت الرواية على المركز الثاني في جائزة أيسلندا لأفضل الكتب مبيعًا، وتمَّ اختيارها من بين أفضل الروايات لعام 2017 من قِبَل الإذاعة الوطنية الأيسلندية. نشرت إيريكسدوتر سبعة كتب، وعُرِضَت لها ثلاث مسرحيات. ظهرَ إنتاجها من القصص القصيرة في "أفضل القصص الأوروبية 2011". "قبضة أو قلب" هي أول راوية لها تتُرجم إلى العربية.

نبذة عن المترجم

عماد منصور (1983 - .....)

مُتَرجِم وروائي من مواليد القاهرة، حاصل على ليسانس آداب قسم لغة إنجليزية من جامعة القاهرة، ترجمَ العديد من المقالات النقديَّة والسينمائيَّة في دوريَّاتٍ مثل: مجلة "عالم الكتاب"، و"مجلة الفيلم". صدَرَت له رواية "تحت السَّمع والبَصَر" عام 2014، وترجمة "يوميَّات كافكا" عام 2019، وعن دار المحروسة صدَرَت له ترجماتٌ مثل: "ألواح موسى" لتوماس مان، والترجمة العربية الأولى لرواية "ماتيلدا" لماري شيلي، و"الرجل الذي كان الخميس" لچي كيه تشيسترتون، و"طفل فيلا" لدالين ماتي.